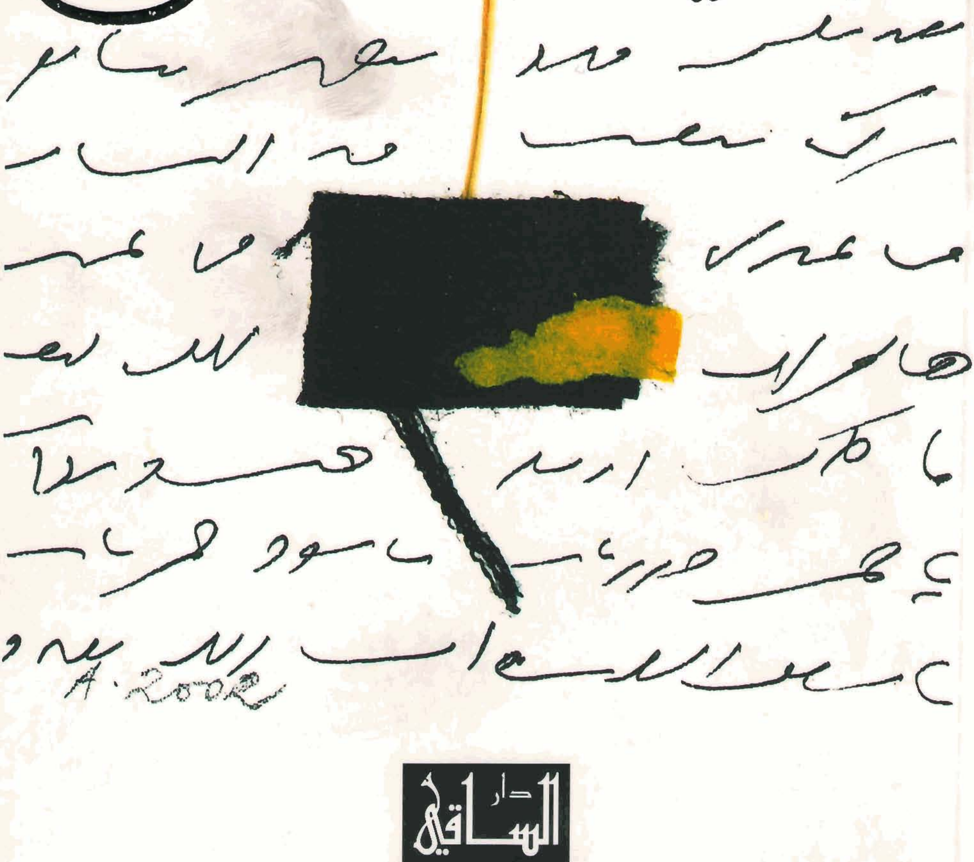
أدونيس

تنبّأ أيّها الأعمى



دار الساقي

تنبّأ أيّها الأعمى

أدونيس

تنبّأ أيّها الأعمى

دار
الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٣
الطبعة الثانية ٢٠٠٥

ISBN 1 85516 475 2

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

فهرست

سِجِّيل ١٩٩٩

١

جاؤوا،
يَحملون رأسَ الأفقِ في صَحنٍ أحمرَ.
دُعيَ السَّرابُ كذلك،
وكانَ يُخيِّمُ بَعيداً في صَحراءَ ليسَتْ بَعيدَة.
شِفاهٌ تُقرَعُ كَمثلِ الأجراس،
صَيدَلانيٌّ يقطِّرُ إكسيرَ الآخرَة،
والمِلحُ يُقاتلُ الخُبز.

إنَّها المأدُبَة!
تحتَ سَماءٍ تنسَكِبُ رَحيقاً
في كُؤوسٍ كمثلِ رؤوسِ المَوتى.
وما أعمَقَ الوحدَة بينَ الدّمِ والسَّماء.

٢

دَمٌ يَسيلُ لا يَتوقَّف ـ
حبرُ نشأةٍ وتكوينٍ،
دَشَّنهُ قايين.
كم كان قايينُ رائياً،
ولم يَسِرْ في التّيهِ،
ولم يَعِشْ في المَنفى.

وها هُوَ الوَقتُ
تجُرُّهُ أُمُّهُ الشَّمسُ، وحَولها سَلاسِلُ،
وَدَواليبُ تحرُثُ الأرضَ،
والفضاءُ قنديلٌ مُطفَأ.

أفلَنْ تتكلَّمي أنتِ، أيَّتُها الأشياءُ الصَّامتة؟
ـ رضاعٌ لِثُدِيّ الأهْوَاءِ.
ـ غيبٌ تقودُهُ النَّارُ.
ـ نارٌ وقودُها الغَيبُ.

والضَّوءُ لا يَكفُّ عنِ النّشيجِ،
باكياً عَقلَ الكُرَةِ،
راثِياً لسُلالةِ المَنفى.

ـ في المَنفى تُولدُ النُّبوّاتُ.
لكنْ، ما أسهَلَ أن تُوضَعَ قُبَّعةُ نبيٍّ
على رأس أفّاكٍ،
ما أسهَلَ أن توضَعَ قبَّعةُ أفّاكٍ
على رأسِ التّاريخ.

زمنٌ
غَسَقٌ هائلٌ من رُؤوسِ البَشر.

٣

سِجّيل،
أينَ وضَعتَ صُراخَ الماضي؟
أفي خَوابٍ يسوسُها الغيبُ؟
أتحتَ مِطرَقةِ قاضٍ سَماويٍّ، لا يَعرفُ أحدٌ أينَ وُلدَ ومتى؟

وسُرَّةُ الأرضِ ـ
تلكَ المَدينةُ الثُّلاثيَّةُ الوَجهِ،
والتي وُلِدَ فيها الغيبُ ثُلاثيَّ الوَجهِ،
كيفَ حَوَّلْتَها إلى لُغةٍ تسعُ شِباكُها الأسافلَ والأعالي،
الغربَ والشّرقَ، الشّمال والجَنوب؟

سِجّيل،
مرّة في الحُلم،
جاءَتني تِلكَ المَدينةُ ـ اللُّغةُ، عاريَةً،
غيرَ أنَّها لم تدخل فراشي،
ولم أكد ألامسها حتى غابت.

مذّاكِ

لا نزال نتأرجح ـ أيامي وأنا

كأن الحلم غصن،

وكأني ثمرة تتدلى منه.

لكنْ، في الحلم،

رأيتُ كأنني أشرب كبد حوت تبحر في جوفه امرأة،

وشعرت كأن ما أشربه

مستخرَجٌ من كبدها.

وخُيّل إليَّ أنها وشوشتني قائلة:

«يمكنك الآن

أن تضع مكان سرّتك سرّة أخرى،

وأن تغيّر أعضاءك».

ورأيتُ كأنّها تَعومُ على الحِبْر!

[ما أعمقَ الوحدة بين الدم والحبر!]

لكن، تلكَ المدينة ـ اللّغة إيّاها،

كانتْ قد جاءَتني

«في شكلِ امرأةِ حاملٍ، تكادُ أن تلدَ،

ورأيتُها تدخلُ في فِراشي.

فجأةً، رأيتُ القابلة، ـ

لم تَكدْ تمُدُّ يَديْها حتَّى خرَجَ الطِّفلُ.

قالتْ، وهيَ تَنظُرُ إليهِ:

«في عَينيهِ نورٌ لم يُعرَف من قَبل».

«أنا هاربَةٌ»،

قالتِ الأمُّ.

وقالتْ:

«خبِّئهُ.

ضعهُ في هذا التّنور».

ـ التّنور؟

ثمّ أسرَعَت، هيَ والقابلة، إلى الخُروجِ من شِقٍّ انفَتحَ في جدار خلفيّ فيما كان رجالٌ يُداهمون بَيتي.

ـ أينَ المَرأة؟ أينَ الطّفل؟

ـ امرأةٌ؟ طِفلٌ؟ ابحثوا، ليسَ في البَيتِ أحدٌ غيري.

وكانَ التّنورُ مُشتعلاً.

بَحثوا، خرجوا.

ركَضتُ مَذعوراً. فوجئتُ:

لا نارَ في التّنور، بل ماء.

وكانَ الطّفلُ يَسبَحُ، ويَضحك».

٤

لست جلجامشَ ولا يوليس.
لا ذاهبٌ ولا عائد،
ومن أين لي أن أكون نبيّاً؟
أنا الصخرة، وعليها يُبْنَى المنفى.

زَمني يفكّر كالماء، ويدي تَعمل كالغبار
في أَبَدٍ
تُؤلّف ريحُه معجماً لِلرّمل لم يكتمل بعد.
ولا قوّة لي،
غير هذا الضوء الذي يهبط عليَّ من مَجرّاتهِ.
أسعَدَني، مَرَّةً،
أن أصنَعَ منَ السَّنابل كتاباً
أضع رأسي إلى جانِبهِ.
أسعدَني، مَرَّةً،
أن أكونَ محراثاً
أصلُ سَكَّته بآذانِ النُّجوم،

أن أرفعَ سِروالي رايَةً للحلُم،
وأن أتّخذَ منهُ غطاءً لتعبي.

الآنَ،
أينما توَجّهتُ
أرَى نفسي في المَدينةِ - إيّاها،
ترتطمُ عَيناي بالطّلاسم،
ترتطمُ قدمايَ،
في نار تَعومُ على الماءِ،
في ماءٍ يَعُومُ على النّار.

٥

يا لهذهِ المَدينة،
أعطتها السَّماءُ يَديها وقالتْ:
ضعي مِنشارَكِ على وَجهِ المعنى ـ
في عَصْرٍ
يَحتفي بالحياةِ، مازجاً البخورَ بهباءِ الجُثثِ.

والكلامُ،
بعضُهُ ألفاظٌ كمثلِ أشداقٍ وَحشِيَّةٍ،
وبعضهُ قيودٌ
لا لأعناقِ البَشر وحدهم،
بل كذلكَ لأعناقِ النُّجوم.
يا لتلكَ المَدينة،
لكلِّ بَيتٍ تبتكرُ راعياً نبويّاً،
ولكلِّ حقلٍ تؤسّسُ قطيعاً منَ المَعدَن.

أثيرُ دُخانٍ وآلاتٍ، ـ

الوردةُ مَصنعٌ
والطّفلُ دَبُّوسٌ في عُروَةِ المَوت.
أثيرٌ يَتخلّلُ أجزاءَ الكَونِ
وأسمَعُ من يُعلِّلُ بهِ الوَقت، ـ
بِاسمِهِ تتنضَّدُ السَّماواتُ
وَفقاً لِفِرْجارٍ آخر.
الجهاتُ،
الدَّوائرُ،
الأقواسُ،
الآفاقُ،
تتنضَّدُ هيَ كذلكَ على نَحوٍ آخر.
وها هيَ الأرضُ، باسمِهِ، سَهمٌ
قَوسُهُ المَدينَةُ ـ إيّاها.

٦

آهِ، ما ذلك السِّلاحُ الَّذي يَلبسُ المُستقبَلَ؟
وما ذلكَ اللَّونُ الَّذي يَرسُمُ هالَةَ الجَنينِ الكَونيّ؟
أوه، متى يَشفى ذلكَ المرضُ
الَّذي يُسَمَّى الوَطن؟

وها هوَ التَّاريخُ ـ
حاضرٌ يَدُبُّ في أكياسٍ منَ الوَرَق،
في عَرَباتٍ تجُرُّها عِظامُ المَوتى.

وأسألُكَ يا هذا العالم:
أيُّ غناءٍ
يُمكنُ أن يَتصاعَدَ
من أصدافِ الشّعر،
غيرُ نُواحِ الأثير؟

٧

لستُ جلجامشَ ولا يوليس،
لكن، ماذا يَفعلُ كَناريٌّ
في قفصٍ في مَدينةٍ
تُسوِّقُ الآلاتِ الجارحَة؟
لا أعرفُ أن أقرأ الخُوذ المُنزَلة،
لا أعرفُ أنْ أردِّدَ:
سَكنَ يونانُ هانئاً
في جَوفِ الحوت.
لا أعرفُ أن أغنّي:
خَرجَ الرَّبُّ راكباً أتاناً.

قُل لي إذن، ماذا أفعلُ، يا جسَدي؟
ربَّما، ربَّما
تلزَمُني أرضٌ
لا تعرفُ اللَّغةَ الَّتي تُسمّى السَّماء.

مَرَّة،
نمتُ بينَ كاحليَّ،
سرتُ في الفِتر الَّذي خصَّني بِه الحَظُّ،
غنّيتُ بفمِ الحَجر،
سَكنتُ في جناحِ عُصفور،
غيرَ أنّني أكادُ أن أنسى ـ
وَماذا تُضْمرينَ أنتِ، يا ضفائرَ حَبيبَتي؟

حقّاً، الوَطنُ الأُمُّ أوَّلُ المَنفى،
حقّاً، لا بُدَّ من إيمانٍ سَمْحٍ وواسِع،
للتّصديقِ أنّ للشّعر مكاناً آخرَ،
غير المَنفى.

أوفيد،
لا يَزال المَسرَح واحداً، ـ
أينَ تقف الآن؟
مع جوبيتر، أو مع إلاهاتِ الماءِ والشَّجر؟
مع الذُّكورَةِ والأنوثة؟ أو مع الخُنوثة؟
وما التَّحَوُّلات الّتي تكتُبُها الآن؟

٨

جاءَ، ـ
قَسَماتُ التَّاريخِ جِراحٌ،
في كُلِّ جُرحٍ يَنتفخُ طَبلٌ ملائكيٌّ،
من أينَ لك هذا السّوسَنُ، أيُّها الطّبلُ؟
وكيفَ مَلأتَ بِهِ الأَوْدِية؟

جاءَ، ـ
من أينَ لخطواتِهِ هذا الصَّبر،
وها هوَ النَّهارُ يَمُدُّ لسانهُ لاهِثاً،
لاهثاً ومَكسوراً،
وعلى كتفَيهِ تنكَسرُ جرَارُ اللَّيل.
جاءَ، ـ
الطّيُورُ نفسُها جراحٌ في الشَّجر،
وثمَّةَ عطشٌ يَغورُ إلى أبعدَ من العظم،
ويَطوي الجَسَدَ طيَّ الوَرَق.
وكلّ لحظةٍ

قمقمٌ تندَلقُ منهُ أحشاء التّاريخ.

جاءَ، ـ
صَدعٌ في ماسَةِ الكَون.

وأنتَ، أيُّها الشّعر،
ألنْ تُوَسوسَ للجُنونِ
كَي يُجَدِّدَ اكتشافَ العَقل؟

٩

بَرْقٌ، -
محيطُ أَرَقٍ،
وما هذه السماءُ التي تلبس بزّةً عسكريّةً؟

خُذْ بيديَّ، يا مَدارَ الجَدْي،
وأين أنتِ، أيّتها الشياطينُ التي يَتَّهمونني بكِ؟

لا النّهايةُ ستبدأ،
لا البدايةُ ستنتهي.
كأنَّ الرّمْلَ وحده،
يقدر أن يُمْسِكَ بمفاصل الماء.
وها هيَ الحَقيقةُ تُواصلُ سَيرها على عُكّازين:
واحدٍ يبدأ برأسٍ
لَهُ مقبضُ السَّيف،
وواحدٍ يَنتهي بطرَفٍ
لَهُ شكلُ العُنق.

١٠

ـ يُهاجرُ،
ـ لا يَنتمي إلى بُلدنٍ، بل إلى تُخومٍ،
والهجرَةُ رايَةُ العَصر.

ـ يتشرَّدُ،
ـ تلكَ هيَ صداقةُ النّور،
وخيرٌ لخطواتهِ أن تقتفيَ الرّيحَ،
وأن تشكَّ في كلِّ عتبَة.

ـ يَشطَح،
ـ ذلكَ أنَّهُ بابلُ وغيرُها.

ـ شاحبٌ،
ـ ذلكَ أنَّ الحبَّ مُرجَأ،
والإنسانَ بينَ قوسَيْ آلة.

ـ غريبٌ وغامضٌ،
ـ ذلكَ أنَّهُ مُقنَّعٌ بكِ،
أيَّتها الشَّمسُ،
أيُّها البُركانُ، يا أوّلَ الإثم.

١١

لستُ جلجامشَ ولا يوليس،
لا منَ الشّرق،
حيثُ الزَّمنُ منجَمٌ منَ الغبار،
لا منَ الغربِ،
حيثُ الزّمنُ حديدٌ صَدِئ.

لكن، أينَ أمضي، وماذا سأفعلُ
إن قلتُ: بلاديَ الشِّعرُ،
وطريقيَ الحُبُّ؟

هكذا أسكُنُ مُترَحِّلاً
ناحِتاً جُغرافيَّتي بإزميلِ التّيه.
وها هوَ الضَّوءُ ـ
لم يَعْد يَركُضُ في خطواتِ الأطفال.
فلماذا، إذاً،
تُكرِّرُ الشَّمسُ وَجهَها؟

أفلَنْ تَهطُلَ أيُّها المَطرُ؟
وتَغسِلَ، هذهِ المَرَّةَ، فَرْجَ الأرض؟

اللَّيل:
بَرْقٌ ـ
أنسِجَةُ الزَّمَنِ تَلتهِبُ، والحَقيقةُ إضمار.

الأرض:
ـ احلمْ بي، وقُلْ
أينما ارتَحلتُ، سَأَرى قصيدَةً تَحتضنُني.
احلمْ بي، حَقّاً،
وقُلْ آنذاك،
في كُلِّ قصيدَةٍ سأرَى بَيتاً لي.

الصاعقة:
ـ الآن، أفتح لك. ادخلْ، ادخلْ.

. . . .

آه، أيها الانفجارُ الخَطِرُ، النَّاعِمُ، أيها الشّعر!

(قَصّابين ـ برلين ١٩٩٩)

من معاني كلمة سِجّيل، كما جاءَ في التّفاسير:
أ ـ الطين المتحجّر؛
ب ـ عذاب الكُفّار؛
ج ـ وَادٍ في جهنّم.

أَفْصِحِي،
أنتِ، أيّتُها الجمجمة

١

ألجحيمُ، ـ إلهٌ: جَسَدٌ من حَديدٍ
وَعينانِ جُرثومَتَانْ.
أَبْجديّةُ هَوْلٍ
والطَّريقُ إلى مَوْتِنا تُرْجمَانْ.

شَحْمُ هَذي السَّماءِ كَثيفٌ، وأَزْرارُها
تَتَفكَّكُ في غابَةٍ مِن شَظَايا.
أَذْرعٌ يَتَخَاصَمُ فُولاذُها وَإِسْمَنْتُها،
والعَناصِرُ مَخْبولَةٌ تَتخبَّطُ ـ مَا هَذِهِ اللُّغةُ المُبْهَمَهْ!
أَفْصِحِي أَنْتِ، يَا هذهِ الجُمْجمَهْ.

شَاشَةٌ لِقياسِ التَوحّشِ عِنْدَ الملائكِ، بَعْدَ
السُّقوطِ إلى عالَمٍ يدبُّ إلى موتِهِ.
لازَوَرْدُ السَّماءِ وَطينُ البَشَرْ
مَسْرَحٌ لِهبَاءِ الصُّوَرْ.

لِلغُبارِ الَّذي سَنُسَمّيهِ ضَوْءاً ولِلصُّورَةِ الآدَميّهْ
لَبِسَتْ أَنْجمُ اللَّهِ فِي لَيْلِها البَدويِّ
سَراويلَ أَعْراسِها:
عَضَلُ الأَرْضِ مُسْتَنْفَرٌ
وَالغَرائِزُ في نَشْوَةٍ كَوكبيّهْ.

٢

ـ فَلَكٌ مِن دَم.
ـ أَلهبوطُ. يَدُ الغيب مَمْدودَةٌ.
ـ لاَ أظنُّ يَدَ الغَيْبِ إلاَّ دماً.

٣

نِصْفُ ثَوْرٍ وَنِصْفُ حِصَانٍ
يَرضعانِ مَعاً ثَدْيَ تُفَّاحَةٍ ـ
(ربَّما ذَكّرت بعضَهم،
بِغواية حوّاءَ) ـ حَوّاءُ مُذّاكَ في رِحْلَةٍ
لم تَعُدْ بعدُ منها. سِياجٌ
قَفَزَ العَصْرُ مِن فوقِهِ. يَتحدَّثُ مع نفسهِ
مع قَبائِلَ ـ كُلٌّ تُسمّي
نفسَها بَيْضَةً. وكلٌّ
تَنْتَمِي، كلَّ يوم، إلى حُفْرةٍ، ـ
حُفْرَةٌ تَتنزَّلُ فيها
جُثَثُ المارقينْ،
حُفْرةُ السَّائِلينْ
يُخْنَقون بِصَمْتٍ.
حُفْرةُ الفقراء يَسُوسُونَ أرضَ الطُّغاةِ بِأَشْلائِهِمْ.
حُفْرةُ العائِدينْ
مِن لقاءٍ يُصالِحُ بين الجِراحِ وسِكِّينها،

ويقولُ لهذي القبائلِ قَسَّمْتُ جِسمي كما شِئْتِ،
مِثْلَ الحقيقةِ في هذه الأَرْضِ نِصْفيْنِ:
صَوْتاً
وسَوْطاً ـ
جَسَداً واحداً.

ـ فَلَكٌ من دَم.
ـ أَلهبوطُ. يَدُ الغَيْبِ مَمْدودَةٌ.
ـ لا أَظنُّ يَدَ الغَيْبِ إلاَّ دَماً.

٤

غَسَقُ الكَوْنِ، ـ أَوَّلُ ما تقرأ الشَّمسُ مِنْهُ ـ انْتَشِرْ حول أَهْدابهِ
مِثْلَ كُحْلٍ، وكُنْ عِطرَ أحزانهِ.
أَوَّلُ اللَّيلِ جُرْحٌ. ما تَبقّى بِذارٌ
لَعِبٌ جامِحٌ لطفولةِ هذا الفضَاءْ.

هل تريدُ الحياةَ انْسِياقاً كمثل الحكايةِ؟ خُذْها
بِذْرةً واحتضِنْها
طِفْلةً تكتبُ الشّعرَ. خُذْها
مِثْلَ فَجْرٍ ـ لِقاحاً
لحقولِ الهَواءْ.
أَلجحيمُ. الهبوطُ. يَدُ الغَيب مَمْدودَةٌ.
إنَّها الحربُ تَخرجُ من غِمْدِها
في كتابِ النبوّاتِ. في غِمْدها
نَتناسَلُ، والأحْمرُ البَحْرُ يَرْمي علينا
شِبَاكَ أساطيرهِ.
صَيْدُ أُولئكَ الذين يجيئون في مَوْجَةٍ

والذين يجيئون في صخرةٍ،
واحِدٌ.

خاتَمُ الموت يَمْهرُ أجسادَنا
فَاقْتَلِعْنَا
مِن أُرومَاتِنا،
وَمُرِ الرّيحَ أن تتعهَّد أشلاءَنا. وهذي
أرضُنا تَتَعفَّنُ، يا سيّدَ الحَرْبِ: هَا لَحْمُ أجدادِنا
وآبائِنا، وأبنائِنا
يَتَفَسَّخُ في مَطْبخِ الكَوْنِ، والنَّاسُ «في شُغلٍ فاكهونْ».
قُلْ لهم: هكذا
يرفع القاتلونْ
رايةَ القَتْلِ تَيّاهةً عاليهْ.
قُلْ لهم: هكذا
تأخذ الغَيْبَ في دارِهِ،
نشوةُ الهاوِيَهْ.

ـ فَلَكٌ من دَم.
ـ أَلهبوطُ، يَدُ الغَيْبِ مَمْدودَةٌ.
ـ لا أظنُّ يدَ الغَيب إلاَّ دماً.

٥

مُدُنٌ، أَمْ مَسارِحُ لِلهَوْلِ والمَوْتِ؟ ماذا؟
رأسُ جَرّافَةٍ؟
صبغَت وَجْهَهَا
صَبغت كتفيْها
صبَغت صدرَها
بِدَمٍ أحمرٍ ـ أَسْودٍ. أَهذي
مُدُنٌ أَمْ مَسارِحُ لِلهَوْلِ والموتِ؟
ما أَفْجَعَ المائِدَهْ:
جسَدُ الأَرْضِ، قَلْبُ المدينةِ، ماءُ الأُلوهَةِ
في قَصْعَةٍ واحِدَهْ.

زَهَرٌ يابِسٌ يُقاسِمُ غاباتِنا حُزْنَها،
والطّرائدُ مِن كلّ نَوْعٍ
تَتزاحَمُ فيها، تُرَتِّل أَوْجاعَها.
هَلْ تقولُ لِفَجْرِ أغانيكَ، يَا شِعْرُ،
أَنْ يَنْشُرَ الآنَ مِنْديلَهُ؟

أَتُراهُ يُغَطِّي
مَا تآكَلَ مِن جَسَدِ الأَرْضِ، أَوْ مَا يُمَزَّقُ مِنْهُ؟
وَبِماذا، وكيف سَيَرْتُقُ أعضاءَ هذا الزّمانِ،
وَأَيُّ المياهِ سَتغسلُ أَدْرانَهُ؟
مَا أَمَرَّ الحَقيقةَ: تَأْتي النُّبوّاتُ في زَهْرَةٍ،
وَتُبلَّغُ في حَرْبَةٍ.
أَلحضَارةُ عَجْفَاءُ، والأَرْضُ جَبّانَةٌ.

ـ فَلَكٌ مِن دَم.
ـ أَلهبوطُ. يَدَ الغَيْبِ مَمدودَةٌ.
ـ لا أظنُّ يَدَ الغَيبِ إلاَّ دَماً.

٦

يَسْأَلُ الضُّوءُ عن بيتهِ:
مَغْرِبٌ أَمْ شمَالٌ؟
مَشْرِقٌ أَمْ جنوبْ؟
غَيْهَبٌ بَارِدٌ
غَيْهَبٌ جامِدٌ ـ سَائِلٌ
في جميع الدُّروبْ.

مَا لِهَذي السَّماءْ
تَتناسَخُ في خُوذَةٍ؟
مَنْ نُسائِلُ، يا بَحْرَنا المتوسِّطَ؟
سيناءَ في تِيهها؟
أَمْ خَواتِمَ أَمْرٍ وَنَهْيٍ؟
أَمْ دماً يتدفّقُ من كُتُبِ الأَنبياءْ؟
طِينُ آدمَ في حَيْرَةٍ
يَتَشَنَّج بين يَدَيْ رَبِّهِ.
آهِ، ما أفجعَ الخِتامْ، ـ

إِنَّه الطَّمْيُ ـ طوفانُنا مِن جديدٍ،
والحُطَامُ يَقُودُ الحُطَامْ.

تلك أَيّامُنا تقولُ وأعمالُنا تقولْ:
أَلحقيقةُ فينا
مَا تَشَاءُ الخُرافَةُ
لا مَا تَشاءُ العُقولْ.
لا تُصَدِّقُ فِينا البيوتُ شَبَابيكَها.
لا تُصدِّقُ حَتَّى قَناديلَها.
يَحملُ الفَجْرُ أَثقالَهُ
ويطوفُ غريباً في تَجاعيدِنا.

كلُّ شَيْءٍ يقولُ: ودَاعاً
لِمدائنِ أَيّامِنا
لِدفاترِ أَطْفالِها
لمحابرِ أقلامِهمْ
لِأقلامهمْ
لِلأسرّةِ مَفْروشَةً بأحلامهم.

مَا لِوَجْهِ الحجَرْ
بين زيتونِنا وشُطْآنهِ،
يَتَغَضَّنُ؟ ماذا؟
كَبِدُ الأَبْجديّةِ مَقْروحَةٌ؟
أَمْ أَزَامِيلُها
تَتَكسَّرُ مَنْبُوذَةً؟

صَوْتُ نَايٍ بَعيدٍ
يَتَصاعَدُ مِن جُرْحِنا
عَبَقاً ضائِعاً في ثِيَابِ الشَّجَرْ.

ـ فَلَكٌ مِنْ دَم.
ـ أَلهبوطُ، يَدُ الغَيْب مَمْدودَةٌ.
ـ لاَ أَظنُّ يدَ الغيب إِلاَّ دماً.

٧

عالَمٌ يُصلَبُ اليومَ. آخَرُ يُنْكِرُ: مَنْ منهما الآنَ يخرج من
جُرحهِ،
ويدخل في جرحنا؟
أَتُراه السُّؤالُ انتهاكٌ؟
أترى سَكْرةُ البَحْثِ كفرٌ؟ وماذا
لَوْ تَنوَّرْتُ حبّي، وأَحطْتُ بصحرائهِ؟ وماذا
لو أسرْتُ الملائكَ في شَهقاتِي، وساءَلْتُها
وانحنيتُ على ظُلُماتي،
وتشرَّدْتُ فيها،
وَساءلتُها؟
شَهَواتي تُجَنُّ،
وَمِن أين يأتي لِرُوحيَ هذا الشَّقَاءُ؟
وَأَنا مِنكُما،
أَيُّها العَالَمانِ، وأَلبسُ ما تَلْبسانِ ـ
الرِّداءَ الذي نَسجَتْهُ النبوّاتُ،
وَاسْتَخْلصَتْهُ السَّماءُ؟

أَلرَّقيمُ. وفي الكَهْفِ ماءٌ تَحجَّر. عُرْيٌ
يَتَلأْلَأُ في لَيْلِ يُوضاسَ. هذا
ذَهَبُ الأقدمينَ، وهذا
ذَهَبُ المُحْدَثِينَ ـ الكواكِبُ مِن فضّةٍ
والتَّعالِيمُ مِن فِضّةٍ
والسّياسَةُ مِن فِضّةٍ.

مَا الَّذي يُولِمُ العَقْلَ لِلقَتْلِ في شَرْقِهِ المتوسِّطِ،
في القُدْسِ، بين جنائنِ بغدادَ،
أو في دِمشْقٍ وبيروتَ والقَاهِرهْ؟
ما الَّذي يَتبقَّى، مَا الَّذي يتلاشَى، ما الَّذي
يَتقطَّر من هذه الذَّاكرهْ؟
مَنْ سَيَجْرُؤُ في هذه اللَّحظةِ الغَسَقِيّةِ،
فِي هَذه اللَّحظةِ ـ المُفْترَقْ،
أَنْ يُجاهِرَ: كلاَّ،
لَم يكن ضَوْءُنَا
غيرَ وَهْمٍ، ولسنا سِوَى بَشَرٍ مِنْ وَرَقْ.

ـ فَلَكٌ مِن دَم.
ـ أَلهبوطُ. يدُ الغَيْبِ مَمْدودةٌ.
ـ لا أظنّ يَدَ الغَيْبِ إِلاَّ دماً.

٨

رايَةُ الوَقْتِ حَمراءُ سَوْداءُ. ماذا؟
مَنْ يَخِيطُ الكَفَنْ
لِلفراغ، لهذا الفراغِ ـ الوطَنْ؟
أَتُرانا تَعِبْنَا
مِن رِياحِ البقَاءْ،
مِن وُجودٍ خَفيفٍ على أَرضِنا،
وَمِن ثِقَلٍ في السَّماءْ؟

٩

ـ فَلَكٌ مِن دَم.
ـ أَلهبوطُ. يَدُ الغَيْب مَمْدودةٌ.
ـ لا أظنُّ يَدَ الغَيْب إلاَّ دَماً.

أَتُرى أَرضُنا
تَتخبَّأُ، مِن أَوّلٍ،
في سَرِيرَةِ غَيْبٍ؟
قُلْ لِشعركَ: أَغْمَضْتُ عَيْنيَّ،
حَتَّى أَرَى.

(برلين، نيسان ٢٠٠٢)

اثنا عشر قنديلاً لغرناطة

١

بيتٌ واحدٌ للسَّماء والأرض
هنا، بين المتوسّط وسييرّانيفادا.
الجَبلُ يضعُ يده في يد الموج
والبحر يتسلّق نوافذ الشَّجر.
إنّه بابُ غُمارَة،
أرى أطيافاً لشعراءَ يصعدون إلى الحمراء
هوغو، غونغورا، خيمينيز، ريلكه، لوركا
وأسمع أرماندو بلاسيو فلديس:
«كم تمنيّتُ أن أكون وُلِدْتُ
في عَصْرِ غرناطة».
ضَيّقٌ هو الفضاءُ على عِطر هذا التَّاريخ،
ضَيّقٌ هو التَّاريخُ على نكهة هذه الأرض.
اصعدْ، أيّها الشاعر، إلى أبراج الأسئلة،
اقرأْ هواءَ الرَّيحان،
وَدرّبْ شفتيكَ على خمرة المعنى.

٢

إِنَّها الحمراء تفتح أبوابها للسَّماء
لكي تخرج وتزورَ أطفالها.
يَدٌ ـ صَلواتٌ خمسٌ
يَدٌ ـ تعويذةٌ تتقاتَلُ مع الشرّ،
وماذا تحمل تلك الأيدي التي تلوّحُ ـ
أَرُمّانَةً تنزفُ، أم كبداً تتأوّه؟
وها هو نَهْرُ الحُدّرة:
خَلخالٌ، وقدمانِ حافيتان.
كانت الجرذانُ تُمْسِكُ بأطراف الشَّمس،
هكذا تركتُها تتَمدّدُ في طَيلسانِ خطوطٍ وألوان،
ودخلتُ في لطائِفَ غامضة
ساجناً همومِيَ في طلَّسْمٍ أَخَضر:
الخيالُ آدَمُ الخَلْق
والحمراءُ حَواءُ العمارة.
احلمْ احلمْ
إِنْ لم تَفْعل أَكَلَكَ النَّومُ واللَّيل.

٣

بابُ الخمر،
هل كنتُ أدخلُ أم كنت أخرج؟
سَكِرتْ مِنّي مُنْعطفاتٌ وأقبية
يَرْتعش فيها ياسمينُ التَّاريخ.
سَكرتُ بحدائقِ الخطّ الكوفيّ والخطّ النّسْخي، ـ
موسيقى تأتي بكَ وتذهب
في كلّ مكانٍ وفي لامكان.
قاعاتٌ، مُوَشَّحاتٌ تَسْبَحُ في بحيراتِ الضّوء.
وَثمَّةَ فراشاتٌ تدخلُ
لكي تخرجَ مِن ألوانها،
خشوعاً أمامَ الجدران،
حيث الطّينُ تَسْبيحٌ
والجدارُ أخٌ لِلأثير.
حياةٌ ـ سُرّةٌ في جسد الرَّقْش
والنجومُ ذُؤاباتٌ تحت أُذنيها.

٤

لا تَخَفْ أَنْ تلامِسَ الغيوم
وَقُلِ اطمئنّي، يا خطواتي.
في سَاحةِ الأُسودِ، في ساحة الرياحين
ينزلُ القمر على سُلّم الماء
لِيَلتقيَ في الماء وجهاً يُحبّه
يَنْطفئ حوله، حياءً، ضوء القناديل.
في كواحلِ هذه الأعمدةِ وَسْوَسَةُ حِليٍّ
والأكتافُ سُحبٌ وأمواج.
ومَن هذا النّقّاش النّحيل؟
أسَرَ في رَقْشهِ نجوماً
لا يُردْنَ أن يُفْرَجَ عنهنّ.
خَطٌّ ـ نَهْرٌ يحفره الحبر
لكي يجريَ فيه ماءُ الزّمن.

٥

هُوذَا قُطْبُكَ، أيّها المريدُ الرَّقْش
والقِبابُ أحوالٌ ومقامات.
في القبّةِ حفيفٌ تغارُ منه الأجنحة
النّشوة تحتها أرائِكُ متنقّلة
تحملها غزلانُ الشّوق.
هنا، تلبس اللاأّنهايةُ جُبّةَ
ويجلس الأفقُ في مشكاة.
أَصْغُوا إلى الأروقة:
زَواجُ اللّيل والشّمس
هو العرسُ الدائم بيني وبَيْني.
وجسدي ليسَ لي.
أخذتْه مِنّي الرغبةُ واللذّة.
اتركوني، إذن، أخترقِ الحاسّةَ
وأبتكرْ أهوائي.

٦

هِيَ ذي أكوانٌ
تدخلُ في ثقوب الإبَرِ التي تَخيطُ ثيابَ النَّوافذ ـ
فيهنَّ سفنٌ وأعناقُ أيائل
فيهنَّ صَهواتٌ، عَلوْتُ إحداهنَّ
وهَزَزْتُ نخيلَ المسافات.
لم أعرف لماذا كانت تلك النّافذةُ تبكي
مع أنني رأيتُ الفضاءَ يقدّم لها منديلَه الأزْرق
وتَروي هذه النّافذة
أنّ القمرَ في الحمراء يصنع الأعاجيبَ
عندما يتَغطّى بالغيم.
نَوافِذُ كمثل بحيراتٍ
لا تَتّسِعُ إلاّ لمراكبِ الحلُم
نَوافذُ ـ أقراطٌ في آذَانِ النّجوم.

الفَراغُ لفظةٌ لا تليقُ بأبجديّةِ الحمراء.

٧

في حَمّام قُمارِش، بين الأصْفرِ والأزْرق والأحمر،
يَعطش الماءُ لا يرتوي،
وَتستطيع أن تعرفَ لماذا.
هكذا تَتطلَّعُ النّافورةُ لكي تَصيرَ جسداً
ويَعملُ الماء لكي يَتحوّلَ إلى نَشيد،
وكلُّ مسْتَحمٍّ
يَحسبُ السَّماءَ ذِراعاً تُطوّق خاصرتَه،
حيث الطّبْعُ
يُعانِقُ الطبيعةَ وما وراءها،
أَوْ هكذا شُبِّهَ لي.
وقلتُ مأخوذاً بما شُبِّه لي:
حَسَنٌ في هذا الشَّطْحِ
أَنْ تجهلَ الأشياءُ ما هِيَ.
ذلك المساء، لم تَنَمْ غرناطة في مُخيّلتي
نامَتْ بين ذراعيّ.
جُرّي، غَرناطَةُ، أَذيالَ برانسكِ
يَطيبُ لِلزّمنِ أن يتعثَّرَ بها.

٨

وَشْوَشَتْني زاويةٌ:
دَخلْتَ، أيّها الشاعر، في مُثَلّثي
وَهيهاتَ أن تَخْرج،
لي ضُروعٌ وليس لي آنية.
كن مِثلي ـ
سَافِرْ، لكنْ في جسدك،
لكي تُحسِنَ الإحاطةَ بالكون.

وقالت زاوية:
العقلُ هنا خادِمُ الحاسّة،
والرَّقْشُ هو الذي يُعلّم الطّينَ الكلام.
لكن، يكفي أن تْحدّقَ في هذا الرّقش،
خلفَهُ هَراطقةٌ يَسْبحونَ في الهواء
لابسينَ أُرجُوانَ الشّكّ.

تُكذّب زوايا الحمراء العِلْمَ:
يَنْسكبُ فيها الضّوءُ
كأنَّه سائِلٌ لم يُكْتَشَفْ بعد.
أخذتِ الزّوايا تُلَمْلِمُ سَرَاويلَها
فيما كانت أشعةُ الشَّمس تَتَسَرْبَلُ بالظُّنون.

٩

تحت طبقاتِ النَّقْشِ والرَّقْش،
أَنّهارٌ جَوْفيّةٌ للحلم ـ
لا جَلاّدٌ تحت هذه القبّة
لا دَمٌ في هذا الرّواق
لا أثَرَ إلاّ لِخطواتِ الشّعر.
رِجالٌ يَتكئونَ على أبواب الحمراء
كأنّهم قُذِفوا لِتوّهم مِن أعالي السَّفَر
كُلٌّ يُحاولُ أن يَجرَّ الجنَّةَ إلى بيته.
نِساءٌ يَنْفُثْنَ في عُقَدِ غرناطة
والنَّجوم تفكّ جدائلَها فوقهنّ.
لكن، جسدي حَزينٌ هذه اللَّحظة ـ
هل أقولُ إنني لم أُولَدْ بعد؟
لا تَجِئْ لا تَجِئْ أيّها الغد،
تَمهّلْ، انتظِرْنا حتّى نعرفَ كيف نراكَ،
حَتّى نَتعلَّم كيف نَسْتَقْبِلُكَ.

١٠

زَمَنٌ شَيْخٌ،
يجلس في ظِلّ عرَبةٍ مَكْسُورةٍ
ويدخّن الفصول.
ترى، هل أقول لجدران الحمراء:
شُقّي جيوبَكِ؟
هل أُطَالِبُ الأعمدةَ بالبكاء؟
«لم يعد لديَّ وقتٌ لكي أضمّدَ الجراح»:
أَهُوَ الوقتُ يُخَاطبني؟
لكن، أَصْغي، غرناطَةُ، إلى خيالكِ
يُؤَاسي تجاعيدَ الواقع،
أَصْغي إلى أبراجكِ
تَقرأ قصائدُ الحبّ.
لكنْ، لكنْ
هَا هُوَ اللَّيلُ يُعطيني قيثارَهُ
لكي أغنّيَ الفَجْر.

١١

هل يَنْشَأُ أُسْطرْلابٌ آخر
يقول الفَلَكُ مقيمٌ في كبد الحمراء
والشعر يَحفرُ قَسماتهِ على الفلَك؟
ولماذا لا أُحِبُّ أَنْ أَتَمرْأَى
إِلا في ما لا أراه؟
هكذا أُوحّد بين الخَلق وفعلهِ،
الشَّيءِ ونِدِّهِ
الشَّيءِ وضِدّهِ،
وأقولُ يدا غَرْنَاطةِ في حقولِ الغدِ
والأشياءُ كلُّها لكي تجيءَ من الأمام ـ
وها هي خُطواتُ غرناطة
حِبْرٌ مُتَفرّدٌ يكتبُ موشّحَ الكون.

١٢

أَصْغِ، أيّها الشاعر، إلى غرناطة
أنتَ لم تَعْشَقْ مساءَ ما مَضَى
إلاّ لأنّكَ مأخوذٌ بصباحِ ما يأتي.
المساءُ يُهيّئُ الفجر ـ
جَذْراً يفتح لك الأفقُ
وعمقاً يُغذّيك بالعلوّ.
ولكَ مثل الشمس، ومثل غرناطة،
خَدّان:
خَدّ على الشّرق،
وخَدّ على الغرب.

(غرناطة، ١٩٩٦)

تقويمٌ للفلَك ٢٠٠١

لا أَسمعُ صوتَها
ماذا تقول هذه الأبجديّة؟
يشكُّ الشَّاعر في الغابات التي تفترش حقولَها
ويُنزلُ عليها صواعقه، ـ

لَيّناً، وكمثل اليَعسُوبِ يَحْرفُ اتّجاهَه في مِلْءِ طيرانهِ
كأنَّه الشُّعاعُ ـ لغةً طيّعةً،
وحروفاً كأنها الأجنحة.

يرفضُ عصوراً لا تَفعل إلاَّ أن تنتظرَ أَنبياءَها
وتواريخَ تُنقَلُ كالسَّلاسل،
بَريئاً من ماضٍ إِسْفَنْجٍ يمتصّ الحاضر،
سابحاً في شَمس خضراء تَسبحُ في الحِبْر.

كانَ قد تَدثَّر ثوبَ الصَّباحِ،
ورآهُ ضَيّقاً عليه.

أُوه! لا طعمَ لهذا النّهار الذي سُمِّيَ واقِعاً.
لماذا، إذن، تقصّ الشَّمسُ عليه
البَجعَ الوحيدَ
البحيرةَ المنعزلةَ
الماءَ المطوَّق؟
ولماذا لا تحبُّ أن تغسلَ قَدَمَيْها إلاَّ أمامَ عينيه؟

أوه! متى سيعرفُ الواقع:
لاَ يقدرُ أن يسكنَ، وإنْ هاجرَ،
إلاَّ في واقع الشعر.
متى سيُصْغي إلى تمزّقه:
لستِ جدَيرةً بِمَنيِّ البَحْر
أنتِ يا شواطئَ العودة.
مَتَى سَيَنضمُّ إليهِ ـ سَائِلاً:
هل الأرضُ للحبّ؟
أَهيَ، حَقّاً، لآدمَ وحوّاء؟

تُراهُ يقولُ مُسَبّقاً ما سيفعلهُ؟
أَمْ تُراهُ سيفعلُ مُسَبّقاً ما يقوله؟
كان يسأل مفيستو عن حِفْظ الطَّاقةِ في الجحيم،

كان يسألهُ عن الزّمن التخيُّليّ في المكان،
وَيُطمئن المعرّي والخيّام:
فاجأتُ غُوته
وهو يتنشّقُ وردةَ الحكمة
وَيُوسّعُ حقلَه المشرقيّ، -
الحبّ الجزءُ أكبرُ
من الكون الكلِّ.
المرأةُ الأرضُ والسَّماءُ
سُرَّةٌ واحدة.
في التَّجاعيدِ التي نجسُّها
من بَشرَةِ هذا العالم -
حيث الكلامُ طَفْحٌ جِلديّ
حيث نألفُ رؤيةَ الظلّ لا الأَصْلَ
وصورةَ الشَّيء لاَ الشّيءَ،

يَضْطربُ الشّاعر
كمثلِ جُسَيْمٍ لا ينطقُ إلاَّ بمبدأ الرّيبة
يَتحرَّكُ في مخروطِ ضوئيٍّ
ويحرثُ المخيِّلة.

يقولُ لِحواسّه:
أَخْطِئي
إِن شئتِ أن تُصيبي.
يقول لذاكرته:
لكِ أن تَنسَيْ
إلاًّ الهباءَ والتباسَ الأَنْحاءِ
والأشياءَ التي لا تعرفُ إلاًّ
شَهيقَ السَّبب وزفيرَ الغاية
وماذا وإن وكيفما ولو
في انكساراتِ في وَجَعِ
في انْعكاسِ لكلّ نظامِ
في فَرحِ في تحفّزِ
يقول لسمائهِ:
لستِ لائقةً بمعراجي،
ولغيبِها:
لكَ أن تلجأَ آمِناً
حيث شئتَ في أرض الأسئلة.

يُوغِلُ في خمائر العَصْر، ـ
هل يتركُ لؤلؤَ جراحه إلى قَاع محيطه؟

هل سيقدر أن يتوقَّف عند مفرق شارعٍ
ويَدخلَ إلى بيتٍ ينتظره؟
وكيف سيظلُّ ساهِراً
في ضَوْءِ أعضائه؟
هَلِ الحياةُ حلمٌ ـ طِفْلٌ
يعيش في عائلةٍ من الدَّمع؟
ولماذا، إذن، لا يكفُّ
عن إغراقهِ في لُجّةِ الحِبْر؟

تنتظركَ، أيّها الشَّاعِرُ، عناكبُ الذَّرّةِ
في أَشْكالِ مَلائكَ تحرسُ حدائقَ الغَيْب.
تنتظركَ الطَّاقَةُ في صورةِ امرأةٍ
تَتَّكئُ على بابٍ مُغْلَقٍ في أفُقٍ
يحمل مفتاحاً أسودَ
في فضاءٍ فَارغِ اليَديْن.

هُوذَا قنديلٌ يَنْكسِرُ إلى يسَارِكَ
تحتَ رأسِ فراشةٍ خَرجت لِتوّها مِن النَّار.
ادخُلي في الصفّ الذي يقودهُ الغيمُ، أيّتها الفراشة،
ادخُلي ـ يَدُ اللَّه (التي هي معكِ)

تُمسك بيدِ الموت في رَقْصٍ أَخْضر.

وَأُنْذِرُكِ أيّتها المصادَفَات ـ
الأَبراجُ تُثَرْثِرُ في أَسِرّتها،
والوقت حولَها سِكّيرٌ أَعْرج.
وَلسْتُ واثِقاً
أَنَّ اليابسةَ أَقلُّ تموّجاً مِن البَحْر.

لِلصّباحِ أن يجلسَ في ظِلٍّ لا يراه
لِلّيل أن يسبحَ في جُرْنِ اللَّذة
للبشر أن يمتطوا أفراسَ السَّاعة
وأن يُعَسْكِروا بين شَفتيْ يقينٍ أحمر،
وأنتِ، يكفي أن تُراقبي أهدابَكِ، أيّتها العين.
أُنْذِرُكِ، أيّتها المصادفات،
إنَّه تقويمُ الفَلكِ، هذه السَّنة.
الرّصاص، الرَّصاص!
يلبسُ جُبّةَ العالم، وينزل ضيفاً على القمر
في مركبةٍ داروينيّة،
وما أكثرَ تَمْويهاتهِ ـ
أَهُوَ البندُقُ مَلْفوفاً بِشرائطَ من الحرير؟

أَهُوَ الخَردقُ ذائِباً في كأس المعرفة؟
أَهُوَ المِسْبَرُ نَفّاذاً في دَخيلةِ العناصِر؟
أَهُوَ الشَّاقولُ مُتَأَرْجِحاً في الأغوار؟
أَهُوَ الثَّقَّالةُ ـ
تضعُها شَبكةُ الصَّيد على رأسها
لكي تُحسنَ الغَوص؟
أَهُوَ صَهيرَةُ الأَمْنِ الأَمْن؟
أَهُوَ العالَمُ طائِشاً خفيفاً؟
أَهُوَ الكونُ يُعاني عُسْراً في الهَضْم؟
أَهُوَ النَّومُ الذي يُشبه الموت؟
ما أكثرَ تمويهاتِكَ، أَيُّها الرَّصاص!
وأين من يقرأُ تقويمَ الفَلكِ الدّائرِ
في تلك المُقَنْطراتِ الدَّوائر
وَهْماً
حول هذه الكُرةِ السَّماويّة الباردة؟
وانظروا إلى الشَّمس في غُرْفةِ نَوْمِها في الرَّصْدِ
في بؤرة جَمْرها
تكاد أن تَسيلَ هي نفسُها رصاصاً،
وقولوا ما ذلكَ الغازُ
الذي يكادُ أن يُسيلَ جسدَ الأَرض؟

كم سيكونُ طيّباً أَنْ نغرقَ في الزّبَد!
كم سيكونُ بَهِيّاً أن نضيعَ تحت صفائح الرَّمْل!
كلاّ! ليس الموتُ أن تموت
الموتُ أَلاّ تعرفَ أَنَّكَ الجوهَرُ ـ حافِياً
لابِساً قميصَ أهوائه
مَفْلوجاً في صَحْراءِ المَعْنى.

في شَكْلِ طنبورِ
ظهرَ القمرُ على شُرْفة العُرْس،
كان سريرُ العروس يتَّشِحُ بِدمَقْسِ اللَّحظة،
والشَّموعُ حولَهُ
كمثل قواريرَ مُلِئت بِزيت التَّاريخ.

ورأيتُ أنَّ للوردة هي كذلك جدراناً
ورأيتُ كأنَّ الرُّوحَ قَبرٌ لِطفْلِ وُلِد من هُنيهة
ورأيتُ كأنَّ رَحِمَ الفَراغِ كمثل دُبٍّ آليّ،
وَخُيّلَ إليَّ
أنَّ الزّمنَ الشَّيخَ القرنْفُليَّ الشَّعْرِ
يُمْلي على أَبنائه:
ما أَحبَّ أنبيائيَ الذين نَذرُوا حياتَهم

للمحسوسات،
ما أكرمَ الحياةَ الدُّنيا
التي فهمت حَواسَّهم
وَاسْتَسْلمتْ لها.
أَلَنْ تقولَ أخيراً، أيّها الزّمنُ الشَّيخُ،
كيف قدرتَ أن تحملَ أرضَنا
تلكَ المقبرةَ البائسة؟
ولماذا تقدرُ أن تُشعل ماءَ المُحيطاتِ
كمثل كبريتٍ أحمر،
وتَعجزُ عن المساس بِشعرةٍ واحدةٍ منها؟

وَمِن أين جئتَ بتلك اليد الأوكسيديّةِ
تجمعُ بين معدن الحديد وحجَر الشَّبّ
لكي تَدْهنَ جِلْدةَ الأرض
ولكي تكشفَ عنها الغطاءَ
الذي يكشفُ الجَذْرَ المركَّبَ لِلطَّمْيِ الكونيّ؟

وانظرْ ـ كلٌّ يُسرعُ باكياً
يَنْحني
يتقوّس

يَتخفّفُ مِن أَثقالِهِ ـ
إِلاَّ مِن فَأْسهِ ومن رؤوسٍ قَطَعَها،
وَيدخلُ إلى القطار الطَّائر الذي يَتَّجهُ
نحو مدينةِ اللّه.

في الهواء في لامَكانٍ
عَمّر الشّاعرُ بيتَهُ
وَاتَّخذَ مِن الهَجْسِ والأَرَقِ والصَّمْتِ
أَصدقاءَ له.

ليس للحقيقة جَسَدٌ لكي نُلامِسَهُ
وليس بينَنا وبينَها غيرُ اللَّهَب ـ
غيرَ أَنَّه كان يَرى انْدِمَاجاتٍ نَوويّةً
تَنقشُ أبجديّتَها عَلى الطّرقِ
وَأمامَ العَتَبات،
وكان يَسْترقُ السَّمْعَ إلى أحاديثَ
في منازلِ النُّجوم
تُشارِكُ فيها العجَلاتُ والمطارِقُ والأبْواقُ
وتديرُها أَجراسٌ
تتدلَّى من أَعْناقِ النُّبوّاتِ

في
إشاراتِ
تُرشِد إلى مدائنِ الثَّلْج ـ
الثَّلج الذي تنسج خُيوطَهُ
حَشراتُ الآلة،
حيث الأشياءُ زَرْعٌ إلكترونيّ
وحيث يَتحوّل الفضاءُ
إلى ثُقْبٍ أسودَ
ينمو فيه طُحْلبُ الجُسَيْمات،
وكانَ يشعرُ أَنَّه فَريسةٌ لِنُعاسٍ غريبٍ
تُولّدهُ في أعضائهِ
أَجْفانُ الغَيْهب، ـ
بين وسائدَ
تتكرّر تحت رأسٍ واحد
بين رؤوسٍ
تتكرّر فوق وسادةٍ واحدة.
ولم يكن يرى عشتارَ في سرير جلجامش،
ولا صديقَهُ إنكيدو جالساً إلى مائدتهِ.
وكانَ الظَّلامُ كمثل سائلٍ يُقَطَّرُ في أَنابيبَ
توزِّعها الشَّمسُ في أثناء النّهار/

بماذا يحدسُ هذا النبيُّ؟
ما يقولُ ذلك الكتابُ؟
وهل سيقدرُ الغَدُ أن يعبرَ سياجَ الأَمْس؟
كأَنَّ الشَّرايينَ عصيّةٌ على الدّم،
كأنَّ الرّئةَ أُسْطورَةُ الأوَّلِين!
رُبّما سَتَنْشَأُ ذراعٌ ثالثةٌ لاحتضانِ
مَا لا يُحْضَن،
رُبَّما سَيُولَدُ للأنْفِ شقيقٌ آخَرُ
يَعيش إلى جوارهِ
لكي يتنسَّمَ اللاَّمَرْئيَّ.
رُبَّما سيجيءُ جسَدٌ يَمْنحُ أعضاءَهُ
مِن أَجْل تمارينَ لِصَهْرِ
الظَّلام والنّورِ
الحلُمِ والواقع
في سَبيكةٍ واحدة.
جسَدٌ ـ مُخٌّ مَعْدنيٌّ
جَسَدٌ ـ فَراغٌ
غير أَنَّه مَليءٌ باحتمالاتِ
تَصْطَخِبُ في رأسِ الآلة،
جَسَدٌ لكي يُكْمَلَ

أو لكي يُعادَ رسمُه مِن جَديد:

SDR - 3X

وأنتَ، أيّها الشّاعِرُ أيّها العاشِق
بأيّ جَسَدٍ سَتُكْمِلُ جسدَكَ؟
ـ ما ليسَ مُجْدِياً
هُوَ ما يُجْدِيني.

دافئاً، كمثل طائرٍ نهضَ لِلتَّوِّ من عُشِّه،
سألَ الشّاعرُ العاشِقُ شَبحاً يُسمّى المستقبل:
كيفَ، هَلْ، مَتَى سَيُولَدُ
إنسانُ الوَعْد،
وكيف سَنفكُّ رموزه؟

كانَ العَصْرُ يتقدَّمُ
رأسهُ كُرةُ بلّورٍ
وجسمُه مَعدِنٌ من سُلالَةٍ
لم تُكتَشَفْ أصولُها.
كانت الشَّمسُ تَفتحُ في السَّرابِ دروباً لِغزْلانِها:
هل السَّرابُ، وحده،
يعرفُ كيف يُراقِصُ العطَشَ؟

وكانت المناراتُ الأكثرُ إشعاعاً
تُخطّط لِمسارحِ الظلّ.
أَسْرِع الْتَقِطْ ثمارك باكراً، أيّها الشّعر الحبُّ،
إنه تقويمُ الفلَكِ، هذه السّنة.

«خيرٌ من السّياسةِ أَنْ نلعبَ النرد»! (هيراقليطس)،
مع ذلك،
انْطَلِقْ يَا سَهْمَ الرّغبةِ وزَمْزِمْ:
سَلاماً فيثاغورس!
سنقولُ للشّعراء ما كنتَ سَارَرْتَ بهِ مُرِيديكَ:
تَقمَّصُوا
لكي تعرفوا كيف تزورونَ أجسادَ
النَّباتاتِ في بُيوتاتِها،
تَآخُوا من جديدٍ
في أسرّة الغُصون وفي أحضانِ العُشْب
لكي تَلأموا الجراحَ بينكم
وبين بقيّةِ الكائنات.
وأنتَ، أيّها الصَّيادُ،
رجاءً لا تذبَحْ هذه اليَمامةَ،
لَعلّها أن تكونَ المرأةَ التي أَحْبَبْتَها،

أَو أحَبَّها، لِلمرّة الأُولى، صديقُكَ الشَّاعر.

في الشّعر الحبّ
ضوءٌ آخر لكي نجعلَ من العَقْلِ
حاسَّةً لِلمْسِ المجهول،
لكي نُحوّلَه من قَفَصٍ إلى طائر،
لكي نُجْريَ في القلب ماءَهُ
ونُجريَ فيه خمرةَ القَلب.
ضَوءٌ في العَصَبِ والخليّة الشّرَيانِ والوريدِ النّبضِ والغَريزةِ
أحلام اليقظةِ
وَمَنامَاتِ اللاّشعور
المُعْتم الخفيِّ الملتبسِ الحَدْسِ الظَّنِّ الدَّفْقِ التشوّشِ
الطَّبقاتِ السُّفلى من الجسدِ
الظلِّ الغَارِ المنيّ
المضطربِ القلقِ المتحوِّل
العَضَلِ الأطرافِ المفاصلِ السَّديم والجنون،
آهِ، أيّتها البَلْبَلَةُ يا أُنوثةَ الكون!
آهِ، أيّها الهباءُ أيّها الجَذْر الأَخْضر!

ونهبط إلى جحيم إينياس،

مُنشدِين معه:

«إن لم نَنْجَح في قَلْبِ الآلهة،

فسوف نقلبُ الجحيم»!

وما أَبْهاكِ، أيّتها الحياةُ

«الطّفلَةُ التي تلهو

برُقَعِ الشَّطرنج»! (هيراقليطس).

عالَمٌ ـ خطواتٌ تواكبُ جاراتِها

ثيابٌ تُعانِق الثّيابَ،

لكن،

ما بالُ الجسد يَترنَّح مُثْقَلاً باشتباهٍ إلَهيّ؟

وكيف أُعْطِيَ له، هو المُدنَّس،

أن يكون بيتاً للمقدَّس ـ

لذلك الكائن السَّماويّ الذي سُمِّي الرُّوح؟

شُبّي، أيّتها الحرائقُ في أحشائه ـ طَهّريها،

كلاّ، لن يَتحرَّر الجسَدُ

إلاّ إذا تحرّر من جَنّتهِ التي وُعِد بها.

كلاّ، لن أُزوِّجَكِ للشّعر، أيّتها السَّماء،

إلاّ عندما تَصيرينَ أختاً لِلتّراب.

وَهَا هُمْ يَسْبُرونَ المادّةَ
يخترقون جدارَ الصّوت
يهبطون على القمر
يحاورونَ المجرّاتِ،
إنَّما أنتَ وحدكَ، أيّها الشّعر،
تعرف السرَّ
ساكِناً في سَريرةِ الخَلْق.

لكنْ، لكنْ
لماذا يظهر القمر الآنَ في شَكْل طنبورٍ
على شُرْفة العُرْس؟
أَهُوَ تقويمُ الفَلكِ، هذه السّنة؟

إلى جانب الجرار المليئةِ بدمع الشَّجر
سَنُمضي السَّهرةَ معاً، هذه اللَّيلة.

(باريس، أول كانون الثاني، ٢٠٠١)

كونشيرتو تأويلٍ آخرَ
لمخطوطات البحر الميت

(«بحر لوط»، «بحر سدوم وعمورة»،
«البحيرة الميتة»، «البحيرة المقلوبة»،
«البحيرة المنتنة» ـ
أسماء أخرى يُسمّى بها «البحر الميّت»)
(الأنسيكلوبيديا الإسلامية)

١

هَوذا،
مِن أرْدَانِ الأُفق،
يُحَاكُ ثوبٌ جديدٌ لنهارٍ آخر، ـ
احتفلوا بهذه الولادة
امزجوا البخورَ والمسكَ بغبار الموتى،
ردّدوا أسماءَ المواليد على أبواب المقابر،
قولوا للملائكِ أن تأتي بمقاعدَ يجلس عليها المدعوّون،
ولا تنسوا أن تزيّنوا الطُرقَ بالصّور والبَيارِق.

٢

تُولَدُ طيورٌ من الحديدِ
لاِحْتضانِ المسافات،
تُولَدُ قيودٌ لأعناقِ الضَّوء.

٣

نزعَ التَّاريخُ خُوذتَه المبلَّلةَ بِالدّم،
وَألقاها في حضن «البحيرة المقلوبة»، ـ
كانتِ اللَّغة تُلقي شِباكها في الهواء،
لِصَيْدِ أسماكٍ تتوهّمها:
أَسْماكٍ تُولدُ، وتموتُ، وتُبْعَث.

٤

أيّامٌ لا تكفُّ
عن السِّباحة في «البحيرة المقلوبة»، ـ
أيّام مقلوبةٌ كمثل هذه البحيرة.

٥

«البحيرةُ المقلوبة»:
نارٌ ـ ماءٌ
في إناءٍ واحد.

٦

بَحرٌ بلا حياةٍ ولا موج، ـ
يا للبحر الذي وقعَ، هو أيضاً،
في فَخّ الألَفاظ.

٧

لا يجرؤ أحدٌ أن يلمس ذلك الماء، ـ
ماءٌ تَلتهبُ فيه غاباتُ المعنى:
قالوا:
في كلّ نقطة ماءٍ،
زرعنا كَلمة.
قالوا:
كنّا نضعُ آلامَنا وأحلامَنا
في جِرارٍ، ونُعتِّقُها.
قالوا:
أبوابُ السَّماء لمن يريد،
ولنا المشيئةُ على الأرض.
قالوا:
كنّا نصرخ ونحن نِيامٌ،
لكي نُثبت لِأَهْدابِنا أَنَّ الواقعَ
ليس شيئاً آخرَ إلاَّ خطواتِنا.
قالوا:
ها هي الكلماتُ ـ
يَضَعْنَ في أقدامهنَّ

أَخْفَافاً من الزُّمرّد والياقوت،
وَيجلسْنَ حارساتٍ على أبواب السَّماء.

٨

«البحيرة المُنْتِنة» ـ
إنْ هِيَ إلاّ مِرآةٌ زرقاءُ
تتمرأى فيها أسماءُ
أُنْزِلت كُلّها بقوّةٍ وسلطان.

٩

جَبَلٌ من الكلماتِ
يَنبعُ دماً، ـ
ما أغربَ هذا الذي نُسمِّيه الواقعَ:
ليس إلاّ حقولاً
تُحرَثُ، وتُزْرَعُ، وتُحْصَدُ
على هَوى المخيّلة.

١٠

تكتب الغاباتُ والجبالُ وصاياها
بآهات الرّياح، وتلبس ثيابَها، ـ
كتبتْ مرّةً:

«مُلوحَةُ آدم ومرارتُه
قَبَسٌ
من ملوحة البحيرة المنتنة ومرارتها».
وكتبت مرّةً:
«بحيرة بِتراكيبَ وأَبْنيةٍ وأُصولٍ
غريبةٍ على قواعدِ الماءِ،
وعلى نحوْهِ وصَرْفه».
وكتبت مرّةً، تُخاطِبُ المسافرين:
«أمامكم حفرة انهدامٍ،
بقامةٍ قصيرةٍ
لا تَصِلُ حتى إلى سُرّة البحر المتوسّط.
في الحُفْرةِ، تتكدّس آلافُ الرؤوسِ غيرِ المرئيّة ـ
كيف ستعبرون إلى الضفّة الثانية،
أيّها المسافرون؟
لكنْ، لكنْ
لا تَلْتفِتوا إلى الوراء
لئلاّ تتحوّلوا إلى أعمدةٍ من الملح.
«الأَمَامُ لا يَلتفت» (ابن عربي)».

١١

رَغَباتٌ تمتزجُ بالأساطير،

جُثث أطفالٍ ونساءٍ
تختزنها الأيّامُ زيتاً لقناديلها،
طيورٌ مقصوصة الأجنحة
ولها شَكْل تُفّاحٍ هَبطَ لِتوّهِ من شجرة آدم،
طرائدُ مِن كلّ نوعٍ،
ومن كلّ أبجديّة
تتدلّى نازفةً على أكتاف الكتب، ـ
ذلك هو بعضُ الخليطِ
الذي تَدَّهِنُ بألوانهِ
آفاقُ «البحيرة المنتنة».

١٢

على مَسْرح الماء العَذْب
يُسْدَلُ سِتارٌ من الملح، ـ
اكتملَ الحدَثُ، ولم تنتهِ المَسْرحيّة.

١٣

غداً، محيطُ الأرق،
غداً، يُحتفل، في ساحة العيد، بِسعَفِ نَخْلٍ وورَق غارٍ
تجرفُها ريحٌ عاتية من على المنابرِ ومن البيوتات،

غداً، أنقاضُ النّجوم التي صُوِّر الفاتحون على مثالهنّ،
غداً، تَتَمَتْرسُ بالزَّبد شُطآنٌ تَتمتْرسُ بعرائس الموج،
غداً، تتجمّع الحناجرُ في تظاهرةٍ تهتفُ لِذَبْح الأُفق،
غداً، يقدّم الحِبْرُ أوراقَ اعتماده في قَصْر الصَّمْت،
غداً، محيطُ الأرَق.

١٤

المكانُ هو المكان، والزّمن وَصْفٌ له:
أسودُ أو أبيض،
قاحِلٌ أو خصب،
دَمٌ أو وَرْد.
وثمَّةَ سؤالٌ في الماء العَذْب:
أيّهما الأكثر مَواتاً على ضِفاف البحيرة الميّتة،
شَتَاتُ الذَّاتِ، أم تَشْتِيتُ الآخر؟

١٥

(أغنية)

«لا أقدر أن أَقْبلَ نفسي إلاَّ إذا نفيتُ الآخر،
لا أقدر أن أحيا كذاتٍ إلاَّ إذا قتلت الآخر،
آهِ، كم يُحيينيَ أن أقتلَ غيري»!

١٦

(حوار)

ـ ما تكونُ الذّاتُ التي تحيا في آنٍ ضحيَّةً وجَلاَّداً؟

ـ لستُ مَسْؤولاً إلاَّ أمامَ وَعْد اللَّه.

ـ لكن، مَنْ ليس مسؤولاً إلاَّ أمامَ وَعْد اللَّه، هل يقدر أن يكونَ مَسْؤولاً عن نفسه هو؟

ـ وَمَنْ ليس قادراً أن يكونَ مسؤولاً عن نفسه، مَنْ تُراهُ يكون؟

ـ مَا بَالُ العَقْل الذي يَسْخَر من الأساطير، ومِمّا تقوله عن حرب الآلهة فيما بينها، في السَّماء، يجعل من البشر أنفسهم آلهةً على الأرض، يدمّرونَها، ويملأونها حَرْباً بِاسْم السَّماء؟

ـ ما هذه السَّماءُ التي تلبس البَزّةَ العسكريّة، وتقف مع بشرٍ لكي يقتلوا بَشَراً آخرين؟

١٧

(صوت مجنون)

التحيَّة للطيور، على هذه الأرض،
للغزلان والخيول،
للغنم والماعز، وبقية الحيوانات،

التحيّة للهواء والماء، للشمس والظلّ، للشجر والغيم،
للمطر والينابيع، للطين والحجر،
التحيَّة لِلتُّراب.

١٨

تَهيّأوا لِقطاف الجَمر، ـ
«بَحرٌ مقلوبٌ» بين شفتي الأرض،
ماؤه ملحٌ ورصاصٌ وكبريت.
يا لَلْماءِ الذي يَنْزفُ لهَباً،
يَا لَلْماء الحزين حتَّى الموت.

١٩

أَطْيافُ أَشرعةٍ، أَشباحُ مراكبَ، آباءٌ وأبناء، ـ
حَبَّارُ الأغوار السَّحيقة
هو نفسه الذي يرسم بحبره المراسيَ والمنارات،
وثمَّة خلائق تعبر وتذوبُ كالملح،
وثَمَّةَ خالِقٌ يرصدُ، ويُدبِّر، ويقدّر
جالساً فوق عَرْشهِ «على الماء».
اجلسْ، إذن، أيّها «البحر الميت»، إلى مائدةِ البحار،
تَجشّأِ الكلام، وقُلْ لهدهدكَ أن يبلّغ رسالتك:

«الابنُ اسمٌ ثانٍ للأب،
والزَّمَنُ كلُّه هو ما مَضَى».

٢٠

لا يكفُّ الهواءُ عن البكاء، ـ
يبكي عَقْلَ الكُرة
يبكي هذا الفضاءَ الذي تُمضي فيه النَّجومُ لياليها
في لعب الشّطرنج حيناً،
وفي رَمْي النّرد حيناً آخر،
يبكي غَيْباً يحرصُ أن يتزوّجَ إلى ما لا نهاية،
لكي يُورِّثَ نَسْلَه
ولكي يَتوكّأَ عليه، إلى ما لا نهاية.

٢١

حَقّاً،
المعنى يعيش في المَنْفى،
حتَّى حين يكونُ في وطنِهِ ـ الأمّ.
هكذا، تتعلّم القدَمُ عِلْمَ الجَبْر،
يتعلَّم التَّاريخ كيف ينظر إلى خشبة مَسْرحِهِ، وفي عنقه حَبْلُ الطّاعة،
تتعلّم الأيّامُ كيف تَضع على صدرها تُروساً مِنْ نار.

حَقّاً،
لا بُدَّ من إيمانٍ سَمْحٍ وواسعٍ جدّاً
لِلتّصديقِ أنّ للجحيم مكاناً آخر، غيرِ هذا المكان.

٢٢

أصواتٌ تقرعُ الكلماتِ كمثل الأجراس:
أ ـ أيٌّ منهما تلملم أنقاضَ الأخرى، وتسهر عليها،
الأرضُ أم السَّماء؟
ب ـ الملح يقاتل التّراب.
ج ـ ملاعِقُ مِن ذَهبٍ بين أَسْنانِ الكلمات.
د ـ صَيْدلانيٌّ يُقطّر إكسيرَ الآخرةِ
في أنابيقِ الشَّهوة.
هـ ـ مدنٌ مُعلَّقَةٌ بقرون الشَّمس،
وأَهْلُ السَّماء كلّهم ملوكٌ فيها،
تَسُوسُهم رِياحُ الأَرْض.
و ـ قبورٌ:
بيوتٌ لإقامةِ الرُّخام والمَلائكة.
ـ أَلن تتكلّمي، أنتِ أيّتها الرّيح؟
ـ إن لم تتغيَّرْ،
لن تَحظى أبداً إلاَّ بريحٍ خَرْساء.

حاشية ـ ١

في الأخبار أنَّ «البَحْرَ الميَّتَ يُحْتَضَر».

حاشية ـ ٢

الطّبيعة نفسُها يأخذها الموت. أين يقف الإنسان فيها،
وهو لا يراها إلاّ مأخوذاً بِالغَيْبِ الواحدِ الأحد؟

حاشية ـ ٣

«لا، ليس الشّرق هكذا. أرض بور. فَيافي عارية. بحيرة بركانيّة. البحر الميّت: لا سمك، أو أعشاب، غائر في عمق الأرض. لن ترفع ريحٌ هذه الأمواج. رصاص رماديّ، مياه سامّة عكرة. قالوا إنّها أمطرت ماءً كبريتيّاً. مدن السّهل: سدوم، عمورة، أدوم، كلّها أسماء ميّتة. بحرٌ ميّت في أرضٍ ميّتة. رماديّة عتيقة. قديمة الآن. أنجبت الأوائل. الجيل الأوّل. عبرت عجوزٌ منحنية الظّهر من مَحلّ كاسيدي، تقبض على زجاجة من عنقها. أوّل خَلق اللّهِ. وَهَامُوا بعيداً في أنحاءِ الأرض، من أَسْرٍ إلى أَسْر. يَتزايدون ويموتون ويُولدون في كلّ مكان. وهناك ترقد هذه الأرض. والآن ليست في استطاعتها أن تُنجبَ شيئاً. ميّتة. كجسد امرأةٍ عجوز. خراب».

جيمس جويس

(عوليس، ترجمة طه محمود طه)

كونشيرتو
الطَّريق إلى كنيسة دانتي

١

ما حاجة الهواء إلينا، نحن الذين نُولدُ في أحضان السلاسل؟
لكن، خُذيني يا يمامةَ المعدن، أيتها الآلة الطائرة، خُذيني حيث يختلطُ جسمي بالأثير، وتذوب قدماي في الهواء.
بلى، أُوْثِر، في هذه اللحظة، وجهَ الآلة على أكثر من وجهِ آدميّ.

المطار ـ أنت هنا مجرّد اسمٍ في لائحة أسماء. رقمٌ بين أرقام. لا قدرة لك على الخروج من الرواقِ الضيّق الذي يطير بك. أنت حقّاً مطروحٌ بين يدي المصادفة، لكي أتجنّبَ كلمةً لا أحبّها: القدَرَ! ربما جلس قبلك على المقعد الذي تجلس عليه شخصٌ ماتَ، أو طفلٌ يحلم أن يظل طائراً، أو لاعب كرة، أو امرأةٌ لا تكفّ عن البكاء.
لا خطواتٌ، لا أثر. تُقيم صداقةً بين الصمت وشفتيك. تكون حقّاً مع نفسك وحدها. تنزل فيها خفيفاً، حُرّاً. تختبرُ صمتك وهشاشتك. تكونُ لك سطوةُ أن تسألها: هل أنتِ أنتِ؟

شيخٌ يجرُّ حقيبةً، يقف أمامَ مكتبٍ، يسأل ويَستفسر. يقف خلفهُ هيكلٌ عضليٌّ متجهِّمٌ في شكل رجلٍ. انظرُ إلى الشيخ يتمتم. أشعر كأنّه يقول: من يبحث عن الراحة هنا، كمثل من يطارد ظل عنكبوت.

المطار ـ بيتُ عنكبوتٍ آليّ. خيوطٌ من معادن مختلفة. ربما سيتمكن علم هذا البيت من أن يجعل الطيور نفسها تعشقُ الأجنحة المعدنيّة.

حقّاً، يحتاجُ الإنسانُ اليوم إلى الحكمة، لكن الجامحة.

لن يقدر أحدٌ أن يتحرك حركةَ الحكيم الجامح، إلاّ إذا كسر قيدَ العفّةِ في عُنق السماء، وأجلسها على عرش شهَواتها، كما كان يفعلُ أسلافنا في بابلَ وأخواتها.

إذن، خيرٌ لي أن أَتأبّطَ كتاب التَوهّم، وأن أرتجل باسمه حبر السّفر.

مسافرون ـ حبلٌ طويل. آخذُ مكاني، قَلِقاً، في هذا الحبل. طفلٌ يُحدّقُ فيَّ. ينتظر مع أمه دوره، خارجَ الحبل. لا يكادُ أن يحوّل عينيه عن الكتاب الذي ينفتح بين يديّ. كأنّه يسأل مستنكراً: هل هذا الحبلُ مدرسةٌ، أو مكتبةٌ؟

طفلٌ ـ حلمٌ.

لا تتوقف عن الحلم، أيّها الطِّين.

الممرّ الأخيرُ إلى الطائرة. امرأةٌ كلما خَطَت خطوةً وضعت قبلةً على شفتي صديقها الذَّابل. إيقاعٌ يوازن بين الخطوة والقُبلة. إلى جواري في الطائرة امرأةٌ تنسكبُ على مقعدها كمثل ضوءٍ ناحل. أنفٌ أَقنى. غير أنها تبكي. لم أتجرأ أن أسألها عن سبب هذا البكاء.

ربما كان قلبها، كمثل هذا الزّمن، مملوءاً بالثقوب.

تهبط الطائرة ـ

لَوِّحوا بأعماركم، تحيّةً للسفر.

وما حاجة الهواء إلينا، نحن الذين نُولد في أحضان السلاسل؟

قبل الهبوط،
كنتُ، فيما أقرأُ الهواء الذي يهبُّ من جهة
الحياة، أنظرُ في أخبار الموتى،
لا أولئك الذين تأخذهم حكمة الطبيعة، بل
أولئك الذين تستأثر بهم جمرةُ الحرب. ولم
أتردّد في صَوْغِ هذه الحكمة الجامحة ـ
تَزْيينُ الموت جريمةٌ
لا كمثل الطُّغيان، بل كمثل القتل.

لكن، لكن/ لا تتوقَّف عن الحلم، أيّها الطّين!

جيروم بلوك، ألبيرتو كاراميلا.[1] حوارٌ في الطريق إلى فلورنسة عن كل شيءٍ إلاَّ عن دانتي. أرمي حقيبة السفر في غرفتي. النهار حارٌّ كما لو أنه طالع لتوّه من فرن الشمس. كان فوزي[2] قد وصل من ميلانو.

ـ نذهب أولاً إلى بيت دانتي وإلى كنيسته.

البيت ـ المتحف. بلاطٌ قديمٌ عرف خطوات دانتي ووَقْعها، خصوصاً عندما كان يترصَّد بياتريس. بعضه مرسومٌ بيد الزّمن، وبعضه مرسومٌ، كما يزعم الزّمن، بيد الحبّ. نقوشٌ كأنّها طالعةٌ من حريرٍ شآميّ تُزينُ كثيراً من البلاط العريض، الرماديّ اللون، الذي يفترشُ البيت وسُلمه الداخلي. في الغرفة الأولى، الطابق الأول، تستقبلك نسخةٌ عن حكم الإعدام غيابيّاً على دانتي، ١٥ آذار/ مارس، ١٣٠٢.

«السيف أوّلاً، كمثل ما يحدث في بيت العروبة» همستُ في أذن فوزي. قال مُبتسماً: «لكن دانتي كان قد تمكّن من الهرب!». وأردف: انظر ـ هذه نماذجُ من رسائل كان يكتبها دانتي موزونةً مُقفاة.

ثلاثة طوابق بُددت فيها أوراقٌ له وعنه. لا شيء. أفضّل عليها السلَّم الداخليّ الذي يصل بين طوابق البيت. أفضّل النوافذَ والخشبَ. للطابق الثّالث شُرفةٌ.

أُصصٌ ثلاثة ـ ورودُ خُبّازى.

كل شيءٍ باقٍ إلاّ دانتي.

ما عُرِض من آثاره المتبقية في هذا البيت ـ المتحف، حكمٌ آخر بالإعدام عليه، وعَلى بلدته ـ الأمّ: فلورنسة.

بؤسٌ في الرؤية والعمل والعناية قلّما نرى نظيراً له.

(«لا كرامةَ لنبيّ فِي وطنه»!).

الصحيح: لا وطنَ لِلنبيّ!

إلى جوار البيت، كنيسة دانتي.[٣] فيها، كان يَسْترقُ النظر إلى بياتريس،[٤] ويختزن صوراً عنها يستعيدها في أحلامه، قبل أن يستعيدها في شعره.

قُبرتْ بياتريس في هذه الكنيسة، ورأينا قبْرَها، وسلّمنا عليه، كأنما كنا نستعيد الطّلل العربيّ وسلامَ أَسْلافنا الشعراء. ولم نكدْ نُلقي عليه نظرتنا الأخيرة، حتى رأَينا حشداً من النساء يدخل إلى الكنيسة، في رفقة عددٍ قليلٍ جدّاً من الرجال.

إلى جوار البيت والكنيسة، يمتدّ ضيّقاً باهتاً مقفراً، شارعٌ

اسمه شارع دانتي آليغييري!

٣

هنا، حيث كان دانتي يحلمُ، وينتظرُ بياتريس، استحوذت على مخيلتي صورةٌ واحدة: كائنٌ بحجم الكوكب الأرضي، رأسه الدِّينُ وجسده السياسة، أو رأسه السياسة وجسده الدِّين، وما بينهما التجارة.

في اللحظة نفسها، كنتُ أرَى إلى الألمنيوم كيف ينتظمُ في كراسٍ تخرج من المقاهي وتدبُّ في الشارع، ثم تأتلف وتجلس في نعمة الكاتدرائيّة التي اتخذت من كبد فلورنسة عَرْشاً تربَّعت علَيه.

لم أشاهد حول هذه الكاتدرائيّة إلاَّ مقصاتٍ بأجنحةٍ سماوية. لم أسمع إلاَّ أصواتاً تتصاعدُ من حنجرة الزمن كأنّها تتصاعد من أنابيق علمٍ لا نعرف بعدُ كيف نُسميّه. لم ألمح على جدران هذه الكاتدرائيّة، العالية باسم السماء وعلى مثالها، إلاَّ ملائكةَ في أشكال عرباتٍ ودراجاتٍ ودمىً ترقص في لباسٍ من الجينزِ الورديّ اللون.

هنا، خُيّل إليّ أنَّ فلورنسة شجرة وردٍ تتفتتُ برعماً برعماً بين مطارق السياحة وسندان العولمة. أكيدٌ لو كان

دانتي حَيّاً لرضي بحكم الإعدام، كما فعل سقراط، لئلا يرى مسقطَ رأسه يُعتقلُ ويُعدم كلَّ يوم.

خُيّل إليَّ أنني رأيت أَغصاناً تبحث عن الهواء في أشعّةِ شمس تنزل كالإسفَلْت على أهداب المدينة. خُيّل إليّ أنّني رأيت بياتريس تجلس على باب دانتي، باكيةً، تحاول أن تقرأ «فَنَّ الحبّ».

خُيّـل إلـيَّ أنـنـي رأيـت الابْـنَ الآخـر لـهـذه الـمـديـنـة، ماكيافيللي، يَسيرُ على شعرةِ السياسة، أمام الكنيسة التي سُميت باسم دانتي، لكي يختبرَ نفاقَ البشر، ولكي يُوهِمَ في الوقت نفسه أنّه يجيء لا لشيءٍ إلاّ لكي يصلي.

خُيّل إليَّ أنني سمعت الفضاءَ يقهقه ساخراً من حكم الإعدام الذي أصدرته على دانتي مدينتُهُ الأمّ.

والآنَ، صرتُ أكثرَ يقيناً أن ما قبلَ التاريخ في أَمعاءِ البشر هو الَّذِي كتب ويكتبُ تاريخ رؤوسهم.

بلى، منذ قايين، والدمُ شهوةٌ أُولى.

ماضياً، كانت الأسطورة تحارب الأسطورة، وكانَ الوثَنُ ينافس الوثن. اليوم، يحارب الوحيُ الوَحْيَ، وتُصارع السماءُ السماءَ، تزلّفاً لهذا الجسد المعذَّب الشقيّ ـ الأرض.

كيف نوضح للشمس أَن أشعتها اليوم لم تعد إلاً خيوطاً لنسج أكفاننا؟ بأيّة لغة نقولُ لها:
شروقها جرحٌ/ وليس غروبُها إلاً قَبْراً؟

أوه، دانتي! هذه الليّلة رأيت قمرَ فلورنسة. لم يعد يمدّ ذراعيه كما كان يفعل في سرير أيامك. لم تعد ترنّ في قدميه، في طريقه إلى أحبابه، غيرُ السلاسل. وها هي تنكسِرُ بين قدميه أجراسُ الذّكرى.

كأنّ الحياة تتحوّل، كما قال صديقك المعرّي، إلى شحاذةٍ وليس لنا من نتحدث معه إلاّ الموّتى. كأنّ السماءَ نفسَها أُفرغت، وحُشيت رَصاصاً.

أوه، دانتي! لا تزال الطرق إلى «المطهر»، «الجنة»، «الجحيم»، تسيل دمعاً. وليس في مراكب الآلهة غيرُ الجُثَث. ألهذه الدرجة، تكره الآلهة الحياة؟

أسألكَ، دانتي، وأصرخ من أغوارِ «جحيمي»: ما أعجبَ الوحدانيّة! ما أعجبَ أفلاكَها! وكيف حدَثَ أن هَجَّرَتْنا من ذلك الوطن الذي كانت فتحته على اللاّنهاية، أوثانُ الغيب؟

ومن أين يجيءُ جهل «جنتك»؟ ولماذا لا تفهم حتى لونَها اللازورديَّ العاشقَ؟ ومن قال لها: القبرُ هو البيتُ

الأكثرُ دفئاً؟ من علَّمها أنّ الموتَ هو الفرحُ الذي لا يموت؟

أُقسم، دانتي ـ (وأَدخِلْني جحيمك)
إنَّ فَرْعاً واحداً من غُصنٍ واحدٍ ينتمي إلى شجرة الحياةِ،
أكثرُ ألوهةً، وأكثر بهاءً
من جميع غابات الموت.

فلورنسة، لم أكتب شيئاً عنكِ. عفوكِ. سأُرجئ الكتابة
إلى يومٍ آخر.

(فلورنسة ١٣-١٦ حزيران/يونيو، ٢٠٠٢)

(١) مدير المركز الثقافي الفرنسي J. Bloch، شاعر ومدير المؤسسة الشعرية «إلغيوري» AL. Caramella.

(٢) فوزي الدّليمي رسّام وشاعر ومترجم عراقي، مقيم في ميلانو.

(٣) اسمها الأصلي: كنيسة القديسة مارغريتا، وسميت باسم دانتي لأنه التقى فيها بياتريس، وكانت من ثم مركز إلهامه.

(٤) بياتريس بورتيناري Béatrice Portinari وقد تزوّجت شخصاً اسمه جيما دوناتي Gemma Donati.

كونشيرتو

Wallotstrasse 19، برلين

١

صباحاً،

أخرج من ١٩ فالوتشتراس. ترافقني ريح خفية من جهة اليونان تضع يدها على كتفي. ريح تحبها الذاكرة.

صادفت اليقين في نزهته الصباحية، وحيداً، كمثل شحاذ يحمل السماء في كتاب بحجم التوراة.

تحت قدميه يرنّ جرس العالم، أو هكذا خُيّل إليّ.

لا أعرف هذه الطريق،

لكن تلك هي طريقي.

٢

المقهى -

لا أحب الدخول إلى المقهى من بابه الأيمن. تنهض أمامه شجرة تغرس قدميها في جرن ترابي يمتلئ بنفايات ينكرها علم البيئة. وقد تغضب عليه صاحبة هذا الكلب الأبيض الجميل، التي تعبر الآن، لو تسمعني أتفوه بمثل هذا الكلام. يحيط برأس الشجرة ضوء أصفر. فوقه غيم لا مطر فيه كما تنبأت آلة الفلك.

نهار يترنَّح في عرَبةٍ من الصور تجرها يد الشارع.

أدخل إلى المقهى من بابه الأيسر. يهدأ اضطراب في جسمي، ظاهرياً، على الأقل. حنان الكرسيّ. شفافية الكأس. عطر ـ شميم طيِّب.

في المقهى، لا يتوقف العالم عن التبخُّر.

وأعرف: لن يكون للدقائق أو للساعات التي أمضيها في هذا المقهى، أن تُذْكَر في أي دفتر يؤرِّخ لمرور الزّمن.

التاريخ ثلج كثيف يغمر العشب والزهر، ما يشفّ، وما يرقّ. لا يظهر غالباً غير النائي الأجرد القاحل.

٣

امرأة ـ تكاد أن تتحول هي نفسها إلى مقهى.

الأجسام الأنثوية هي وحدها تدير الحركة والعمل. الرجال يتفيأونَها.

فتاة (تقول إنها من أصل كوبيّ)، تعمل كمثل قيثارة بين يدي الوقت.

٣

من أين يَجيء لونُ البنفسج، وكيف يلبس النافذة الرمادية التي أجلس قُبالتَها، وأنظر منها إلى الأفق محمولاً على بساط الذاكرة؟

ـ عفواً، ظننتُ أَنَّكِ شخص آخر. اغفري لهذا العابث جراحَ ذاكرته.

٥

هالة من الضوء تطوف أرجاء المقهى. كأنها خرجت لِتوّها من أشعة غامضة. تقف عند كل لَوحة من اللوحات التي تتدلّى على الجدران، وتهز رأسها. لوحات تنغرز في الوجه كمثلِ الدبابيس. للحواس الحقُّ في أن تُجيِّشَ ما تشاء من طوفان الغضب لجرفها، خارجاً.

كم سيكون جميلاً آنذاك عُرْيُ الجدران!

كم سيكون الفراغُ بهيّاً!

٦

في هذا المقهى ـ فيلينشتاين، شارع كورفورستندام، برلين، يبدو لي أن الطفل والسياسي هما صرفُ ألمانيا ونحوُها؛ أن الخبز والرياضة هما رأس الثقافة الحديثة.

خُيِّل إليَّ، فيما أقول ذلك، أن أطيافاً تتجمع حولي، وتنازعني كأسي؛ أن خمرتي محفوفة بِحَبَبٍ همه أن يُبقي باب الغيب نصف مشقوق، وأن يظل المجهول أحد حراسه.

لكن، هذه كلمات أقولها بفم الغيم.

٧

موسيقى السيارات، هذه الآلات ـ التماثيل، تدخل هي كذلك إلى المقهى. من النافذة، أرى السماء فوقها، تفك عروة نهديها. أرى إلى الغيم يزداد تجهماً. ماذا يحدث للشمس؟

٨

تخيّل في المقهى، أو في ١٩ فالوتشتراس، أنك تلعب كرة القدم أمام كنيسة أو جامع أو وراء كنيس.

وسوف ترى آنذاك أن العالم طريدة في شكل صيّاد، أو صيّاد في شكل طريدة،

وأن المأساة التي بدأت مع جلجامش لن تنتهي مع برتولد بريشت.

٩

إيقاع يخرج من بين قدمي الآلة.

وما السر في هذا الابتذال الذي لا يمل؟ يتكرر، يملأ المقهى، يزينه، وبالتكرار نفسه يضفي الحرارة على المقاعد والجدران والممرات.

المبتذل الغامض!

١٠

يجب أن أتعلّم
كيف توزَن الحرية التي تجلس
على عتبة المقهى.

١١

ما هذا العالم، إن كان لا يقدر أن يجيء إلاّ في هيئة رغيف، أو في شكل كرة؟

١٢

وافد إلى المقهى -
يصعب أن يكون سليمانَ النبيَّ،
مع أن وجهه يذكّر بالهدهد.
لم يجلس.
نظر يميناً يساراً.
حَمل في عينيه المقهى، وخرج.
لا مكان في المقهى للنبوءات.

١٣

فيما كنتُ أقرأ شعر الصديق توماس ترانسترومر، تذكّرت:

أرسلتُ عدداً من قصائد المتنبي، الصديقِ الآخر،
للبحث عن الحرية في البلاد التي ننتمي إليها.

١٤

نُبوَّةٌ غَفورةٌ، وعاشقة.

١٥

تشتهي المخيلة أن تنحت تمثالاً لشفتي هذه المرأة التي ترشف قهوتها كأنها ماء الحب.

١٦

لا مكان للغزلان بين مقاعد المقهى.

المكان كله لدبٍّ يتناسل في أشكال وألوان كثيرة، يختارها على هواه، بارتجالٍ مبين.

١٧

فراشة على طرف طاولتي. لم أسأل كيف جاءت، ومن أين؟ أحدق فيها ـ تجرّ جناحيها. تتحرك ببطء. كأنما يشدها الموت إلى صدره. وتحاول هي جاهدة أن تسير نحو صدر آخر.

أوه، أيتها الفراشة.

لا يقدر جناحاي أن يطيرا بك.

١٨

يمر الوقت في المقهى،
هادراً كمثل نهر فائض.

١٩

يتحدث المقهى عن زوار يجيئون مساءً ويملأونه.
عن عرس بينه وبين الشارع.
غير أن الفتيات اللائي يخدمن، وكل منهن تكشف عن سرّتها بزي خاص،
يواصلن فتح صدورهن في اتجاه الكواكب الأكثر قرباً إلى مدارات العين.

٢٠

يولد المساء، فيما أنهض وأغادر المقهى.
أين الجنة، إذن؟

(برلين، أوائل تموز/يوليو، ٢٠٠٢)

كونشيرتو
١١ أيلول ٢٠٠١ قبل الميلاد

١

توسّدوا سندسَ اللّه،
أو استسلموا لدولاب الآلة،

سوف يَقْتفي، هو الجامح، طبقاتِ التكّوين السُّفْلى،
مُزَوَّداً بماءٍ يحمل الغواية
في كينونةٍ ـ نصفها رَصاصٌ ونِصفٌ أسطورة
في فيض أشلاء
حيث تَشطح العناصِرُ وتَتهتَّكُ المادّة
١١ أيلول ٢٠٠١ قبل الميلاد ١١ أيلول ٢٠٠١ بعد الميلاد
عِلمُ إيقاعٍ آخر للمؤالفة بين الفِطْرة والفِطْر
بين العُنقَ والسّيف، الرّيح والرّوح

ولكم، أيّها النّاس، أن تصفّقوا للدّم الدّافق من عِرْق الخَيْر
ولكم أن تنحنوا لأقنوم اللّذة في هيكل الشرّ

في سَيْل عصارتِ معدنّية

في شَلاّلاتِ نارٍ
في سماواتٍ يفترشها الرّماد.

أبولّون ـ أيّها الإلَهُ العشيق العاشق،
هل تعرف، الآن، أن تميّزَ بين الوجه والعجيزة؟
وأنتَ ابتهجْ تَهلَّلْ أيّها الرّجيمُ المنبوذ
الجنّة هنا ـ هنالك، تحت قدميك.

سوف يقتفي، هو الجامحُ، طبقاتِ التكوين
ينزل فيها إلى «أسفل سافلين»
يكتب تاريخاً آخر للصوت والحرف والكلمة
إلى يمينه ناقةٌ كأنها ناقة امرئ القيس
وإلى يساره مركبةٌ فضائية.

ص صحراء لا تكفّ عن الصّراخ
ع عمل الرّيح في معدة الرّمل
ح حلم جسمٍ رأى، وهو في المشيمة، كلَّ شيء
غ غنّتِ النّجوم
ي يخطب القائد الملك:
«لا تُصدِّقي ما يُقال أيّتها الرّيح. كلاّ، لا أطلبُ

منكِ إلاَّ الطّاعة. وأنتِ، أين كنتِ، لماذا
تباطأتِ، أيتّها السّماء، عندما دعوتكِ؟»

ن نشيجٌ في حنجرة التّاريخ، ـ
ابن رشدٍ، ديكارت، هيغل
أين عقلك الآن؟ في طبريّة؟ في الهدسون؟
أم بينهما في مكّوكٍ أحمر؟

الحاضرُ مَسْلَخٌ
والحضارة فرنٌ ذَرّي.

وَما تقولون في بَشَرٍ، كلٌّ منهم يعيش داخلَ كرُةٍ من الثَّلْج
وليس له إلاَّ حلمٌ واحد:
أن يتنزّه على كوكب الزُّهرة؟
وقولوا: من يستعمر مُخيِّلة الغرب؟
مِن أين ليد الخيْرِ أن تُمسِكَ بعصَا موسى
وتفجّرَ حَمْأة الحرب؟
وكيف تُحوَّلُ ألفُ ليلةٍ وليلةٍ إلى ألف جيشٍ وجيش؟
وقولوا: من يُصيِّر الألوهة أُلهيةً؟

يقيني مُقيمٌ
في بيت عنكبوت.
وهذا الذي يتفَتَّتُ في هباءِ المجرّات
ليس كوكباً،
وليس آلةً لغزو الأفلاك،
إنه شِعر المادّة.

ما أحوجَ حواسيَ، اليوم، إلى أن تُقرأ الكتب المقدسة
بِعين الشِّعر
سيكون بوذا سعيداً
بوذا يقرأ بجسده ويحبّ الشعر.

طبقات التكوين السُّفلى ك ن
المصادفةُ بيتُ الكائن
لا آخر للكلام
لا خاتمَ للمعرفة.
طبقات التكوين السُّفلى ت س
موّهي أمعاءكِ، أيّتها التّقنية، فيما تزدردينَ
جسدَ الكون.
لكن، مهما أوغلتِ، لن تصلي إلى مجهول القلب،

وما أشقاكِ يا نعمةَ الفنّ، ـ
الرّيشة تكسر أختها
والحِبْرُ يقاتل الحبر.

طبقات التكوين السّفلى   ق   ل
غ   غوانتانامو
سجنٌ تديره الرّأسماليّة في جزيرة شيوعيّة
فضاءٌ يطفحُ بأبجديّاتٍ كمثل الطّين الذي جُبِل
منه آدم ـ («الأرض عاهرةٌ» قلتم. لكن
أليست أمًّا لجميع الملائكة؟)
ش   د   أشكالٌ آدميّةٌ حيوانيّةٌ من كلّ نوعٍ تُذبَحُ وتُمَدُّ
نيئةً على موائد الزّمن
دَمٌ يُراق كأنّه يَنبجسُ من جنائنِ اللّه.

م   المُستبعِد/ المُسْتَبعَد   تمويهاً أو تلطيفاً لذلك
الثّنائي السيد/ العبد
س   ش   تقديس الموت   الخير الذي هو
الشرّ   الشرّ الذي هو الخير
الفكرُ غِسْلينٌ

وفي البدء كانت الجريمة.

(«وماذا يريد هؤلاء الذين
لا يريدون السَّلام ولا العدالة،
ولا يريدون الإرهاب؟»
سانت ـ جوست، محوَّراً)

هـ (هل هذا الإنسان موجودٌ حَقّاً في الإنسان؟)
ث لا ثأر بل عدالة: هكذا تكلّم إسخيلوس.
الثأر أوّلاً: هكذا تتكلّم نيويورك.
أَحْسَنْتَ، جيم موريسون، في كلامكَ على «اللَّيل الأميركي»،
امرؤ القيس، المتنبي، المعرّي ـ
قولوا: من يُحسن الكلامَ على كوكبه التّابعِ «اللّيل العربيّ»؟

آهِ، كم هي الأرض مُرْهَقَةٌ.
حَقّاً،
مِنَ الصّراع بين النّون والياء والكافِ
وُلدت تراجيديا العالم.

٢

م موكبٌ يشيّع نشوء القارّاتِ يجرّه نجمٌ في حراسة

أرجلٍ يقودُها العَماء حيث نقرأ
تاريخَ الإنسان
في ترجمةٍ أخرى
ينقشها على صفحة الذّاكرةِ
إزميلٌ بلاستيكيّ.

وفي غابةٍ من طحالبِ اليورانيوم
نُنشئ أفراناً تقدّم لنّا الخبز الجرثوميّ.

ليتني أعرف كيف أعقد العلمَ بخيط الحلُم
إذن لكنتُ دخلتُ في فراش صَدَفةٍ أو عاشَرْتُ شجرةً

اشرحِي صَدْري أين ذراعاكِ يا شجرة الياسمين؟
وأنتَ، أيّها الطّائر المهاجر، أَوْلى أن تُقْتنص في
دار هجرتكَ مِن أن تُخنق في سَرير أبويك
لا تَنْسَ أن تُقَبِّل باسْمي الغُصنَ الأوّلَ الذي
يستقبل جناحيك وسوف أقبّل باسمك
الهواء، لا لشيءٍ إلاّ لكي أمتحنَ القيدَ الذي يُطبق
على شفتيّ.

٣

ج   أجمل ما يميّز جسدَ البحر أنّه أَسيرٌ لطيش
الأمواج   متى وكيف نضعُ خاتمَ الطّبيعة في
خُنصر الرّبّ؟

أسأل وأعرف:
الجهل، هنا ـ هنالكَ، مِفتاح العِلم.

هل أخطئُ إن قلتُ لِلضّرروةِ: هاتي ثماركِ؟
وللمصادفةِ: اقطفيها؟
هل أخطئ إن قلت: صارت الثقافة نفقاً نتعلَّم
فيه كيف نستأصل الحياةَ، ونُبيدُ الإنسان؟
نمحو اللّونَ ونُثْبِتُ مكانه الوَحْلَ   نَسجنُ
أبجدية اللِّسان ونحرّر أبجديّة القدم   نَنْحَرُ
المعرفَة على مُنحدْر تاريخٍ يقطرُ دماً.

هل أخطئ إن قلتُ: الطّريقُ إلى الغدِ جرحٌ
مفتوح؟
سوف أوضح هذا كلَّه في رسالةٍ أوجّهها إلى
الشّمس.

ولا أريد، أيّتها الحياة أن أشكو منكِ، أو أشكو إليكِ.
لا أريد أن أقول إلا كلمةً واحدة: أحبّكِ.

كان جلجامش في ذلك اللّيل من أيلول ٢٠٠١ قبل الميلادِ
قد ارتطم بالعشبة التي تغلب الموت لم يعرف
كيف يلتقطها وكانت نبوءات تيريزياس
في ما بعد قد ملأت عيني هوميروس بظلمةٍ تنحدر
مِن أفخاذ آلهة الأولمب فيما كانت
ذبابةٌ ليوليس تحكّ جِلْدةَ اللَّيل، ذلك اللّيل
الذي يسير برِجلٍ واحدة وفيما كانت بينيلوب
تستيقظُ صارخةً: عالَمٌ ـ
ذبابٌ في النّهار،
بَعوضٌ في اللَّيل.
وقلتُ لأنابيقَ تحاور المِجهرَ أو تسيل في أنابيبَ
سيميائية حيث للحبّ شكلُ البويضة وللشعر
سُرعة الضّوء قلت:
ما أوهنَ بيتاً
تعيش فيه حكمةٌ
يُمليها حِبر نيويورك.

٤

كان إلَهٌ سومريٌّ يُصغي إليَّ فيما يبلّل قدميه بالماء الذي
يوحّد بين دجلةَ والفرات.
هل صحيحٌ، أيّها الرّبُ الصّديقُ أنك همستَ
مرّة لزوجتك: «صعبٌ على الربّ نفسه،
في هذا العالم، أن يكونَ نفسه؟».
فجأةً.
هبط علينا حشدٌ من الملائكة، وأخذ يرجمُ اللّغة.
ولئن كان الكلام ناراً، فالصّمت أوّل الجحيم.

كنت نسجتُ ثوباً لنيويورك بخيوط هذه اللغة نفسها،
سهرتْ طويلاً فيها
بين أصداء بقراتٍ ليست عجافاً
تتراقصُ حولها نفايات الذرّة ورأيت
كائناتٍ من الورَق المُقوَّى تَصدحُ بأناشيدَ
تكتبها ضفادع الهيدروجين.

٥

يمكنك، أيها الشاعر، أن تدسّ أنفَكَ في كلّ شيء،
وأن تدسّ ما يعنيكَ في أنفِ الأزمنة.
يُمكنك أن تقيم معسكراتكَ في جبهة الشمس، وأن تقولَ

لجنودكَ من الصّور والأخيلة أن يسهروا
على حراسة الأرض.

لكَ، إذن، أن تُعلنَ: الكارثةُ جذرُ السَّماء.
ولكَ أن تُشيرَ: يكادُ الحجرُ حتى في بغدادَ أن يتفطَّرَ خجلاً.
وليس مُستبعداً أن يكونَ
لدجلة الآن لحية وعُكاز،
وأن يكونَ الفراتُ يرتجفْ هلعاً
مِن هجومٍ يهينهُ ضمي التاريخ.
ولكَ ألا تعجبَ، في هذا الأرق الذي يزلزل الكون، إنْ
سمعتَ هاتفاً يأمركَ لا تخفْ، واطرَبْ
عَواصِمُ العرب ترقصُ طرباً: أكّدَ التأويلُ
أن الكونَ كلَّه مُسَخر لها.

٦

كنتُ في غرفتي البائسةِ في باريس، أحاول أن أُجلسَ بلادي
على ركبتيّ لا لكي أعالجَها كما فعل رامبو مع الجمال،
بل لكي أتنشقَ رائحةَ خريفٍ يَستتر فيها،
ولكي أقارنه بوجه الشاعر وربّما لكي أعلنَ
حقوقاً أخرى للإنسان لا أزال أتردد في الجَهْر بها.

ـ طرقٌ على الباب.
ـ لا سلاحَ. لا شيء غير الكتب.
ـ هَه! مَنْ قال الحروف لا تحمل سلاحاً؟

الواقعُ يشقّ جدلَ ماركس وها هي الطبقة غيمة
ضالّة، وها هو الخيال يوشوشنا: «أشكّ في
أننا آخِرُ الأفق النباتي. وظني أننا حجارة تُلقى في
الماء رجماً لشياطين التُراب».

غيرَ أنني لا أزال، منذُ ما قبلَ ١١ أيلول ٢٠٠١ قبل الميلاد،
أتعلّم كيف ألوِّن حبري بالرفض وكيف أضعُ
صيدي من النبوءات في جعبةٍ للهواء تحملها
يمامة عاشقة.
أذكرُ ـ لم تكن القنابل تغار من الكواكب
كان الضوء صديقاً لكلّ شيء وكانت الألوهة بشرة الكون.
ما أحوج شيخوخة الكلام إلى طفولة الأبجدية.
أعطي خصركِ يا أرضَنا، إلى ذراع الفجر.
إلى ذلك الوقت، يجلس الكون باكياً يمسح دموعه
بأجساد الموتى.

٧

آه، كما هي الأرض مُرهَقة.

ـ صراخ جمهورِ أخضر.

ـ لا تخفْ، أنت كذلك أيها الوطن. سآخذكَ إلى سدرةِ المنتهى.

٨

«اكتملَ كلُّ شيء»، يقول الشاهد الذي يموت.
إنه عصرُ الإنسانِ
الذي لا يكاد يُولدُ حتى يشيخ.

الحقيقة وحشية، أو ليست إلاَّ طفلةً تُولد ميتةً:
أيها الطفل الذي فيّ،
كرِّرْ عليّ حبك للخراب الجميل. وقل لي أيضاً وأيضاً:
أن تقرأ هو أن تكتبَ المستقبل.

هكذا، عبر الحطام والعَبَث،
أرفع إليكَ جسدي، أيها الحب.
سلاماً، أيها الأثيرُ الذي لا تقدر أن تراه إلاَّ عينُ العاشق.
وأنت، أيها الشِّعر،
هل ستواصلُ عطاياكَ ـ تأخذنا إلى مصادفاتِ

حالاتِ نعيد فيها رؤية البشر الوجودِ الأشياءِ
الغرائزِ العقولِ الكثرةِ التنّوعِ الفَرادَةِ.
يقظةِ الطبيعةِ وسَهَرِ المادة؟
هل ستأخذنا حيث نقدر أن نجهر:
لم تبقَ نجمة إلاَّ اخترقتها مخيلتك،
لم تبقَ سماءٌ إلا نطقتْ باسمكَ؟
هل ستأخذنا إلى أرضنا نفسها، هذه التي تدور
على جراحها، حيث نقدر أن نصرخ:
أيها الانفجار الورديّ في براكين حياتنا،
متى تضع حداً لبؤس هذه الدنيا؟

٩

في ضبابٍ يترنَّح لونُه بين البرتقال والبُنّ،
أحاول أن أسبُرَ هذا القرنَ الطالع،
غيرَ أنني لا أجدُ العونَ الجاذبيّ،
مع أنني نقلتُ الأمرَ إلى كوكب الزّهرة،
ولوّحتُ بيديَّ الاثنتين أحيّي المريخَ وضيوفه وجيرانَه.
لا يزال مساري محروقاً،
ولا أرى، أينما اتجهت، إلاَّ غلياناً غامضاً،
ولا أجد أية مظلة.
وكيف أحذرُ مما يأتي،

والحذرُ نفسُهُ هو الرّعب؟

١٠

توسدوا سندسَ اللَّهِ
أو استسلموا لدولاب الآلة،
سوف يتشرّد، هو الجامح،
بحثاً عن كبد العالم.

دروبٌ يشقّها دمُ العواصم ـ القدسُ، والمدنُ
تلك التي تبني عروشها على مفاصلِ الجسد،
حيث يقيم الموتى في الكتب والنوافذِ،
وحيث الأحياء يتطوَّحونَ في مهامهِ الفَراغ.
يتشرّدُ ـ هو الذي نشأ في الأرض ذاتِها حيث وُلِدَ
المسيح،
بين شجرة تكادُ أن تقتلعَ،
وحَمْلٍ يكادُ أن يساقَ إلى الذبح.

ومَنْ يكونُ ـ هو الذي يواجه
أربعةَ ملياراتِ
وستة وخمسين مليوناً
من دورة الأرضِ

حول شمسٍ
تهيئ ثورتَها السادسة والعشرين
في محيط المجرة؟
كلاً،
لا يريد أنْ يضيءَ إلاً خطواتهِ.
ألَن تعلمه مِن جديدٍ، أيها الحبُ،
كيف يمتزجُ بالخلائقِ،
وكيف يعزفُ على قيثار الكون؟

١١

إذن،
ماذا ستلبسُ، هذه الليلةَ،
العاشقةُ الفقيرةُ الأرض،
كتّان عشتارَ، أم حريرَ نيويورك؟
ومع أيِّ سماءٍ
تريدين أن ترقصي، أيتها العاشقة؟

(باريس، أوائل أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٢)

كونشيرتو
«المسيح المحجَّب»

إلى فرانشيسكا كورّاو

١

لم أرَ الطرق تطير كما رأيتها في نابولي، الاثنين، الثامن عشر من الشهر الثاني في السنة الجارية ٢٠٠٢. كنت أريد أن أصل إلى المطار، خوفاً من أن أضيع، أو أن تفوتني الطائرة، كما يحدث لي غالباً.

وكنت في الوقت نفسه أريد برغبة جامحة أن أرى تمثال «المسيح المحجَّب» لسامَّارتينو آه كم أغبطه على التقنية الشاعرة التي تعكس آلام المسيح ـ هانئةً، كما لم تعكسها أية تقنية من قبل موجة في شكل تمثال والماء منديل يتجعَّد يشفُّ بتجعُّداته كلِّها عن جسد تقول في وصف آلامه:

يكاد العذاب أن يكون هذا الجسد.

كنت أشتهي أن أشرب القهوة ثانية في مقهى إنترامينيا في ساحة بيلِّيني وأرى كنيسة سان دومينيكو وساحتها

وكنيسة النيل ـ («المكان المرعب» كما يقول نقشٌ لاتيني في أعلى واجهتها) وتمثال النيل الذي نُصِبَ تحيةً لتجّار الإسكندرية الذين كانوا يعمُرون نابولي

لكن الطرق كانت تطير تحت شمس بدأت تحلُّ جدائلها الطويلة فوق شرفات تمدُّ أيديها للأفق مليئة بالورد وكانت الألوان في الأزقة الباذخة أخذت تميل إلى الانزواء لكي تُحسِنَ تذكُّر الوجوه القديمة، اليونانية والرومانية، ووَقْعَ الخطوات... (بوكاتشيو، بترارك، توما الأكويني، جيوتو، سامّارتينو)... الخطوات على البلاط نفسه الذي عشقتْه قدماي (كل شيء تغيّر إلاّ هذا البلاط!)

تذكرتُ المعرّي وغبار الوجود وقلت ربما عليَّ أن أصغي إليه وأن «أخفِّف الوطء».

تُرى هل يجيء الغبار الذي يغطي تلك البلاطة الرمادية على عتبة هذه الكنيسة من جسد الأكويني أو من جسد جيوتو أهي يدُ الغبار هذه التي تلامس كتفيَّ؟ وهواءُ هذا الزمان من أيِّ غبار يجيء؟

كانت فرانشيسكا تحاول أن تلتقط الإشارات التي يلوِّح بها

ذلك الزمن فيما يحاول فرانشيسكو أن يسجل بعض
إيقاعاته في مؤلَّف شعري موسيقي نكتبه معاً وفيما كنا نحن
الثلاثة ننتظر جينَّارو

لكن الطرق كانت تطير وكان التاريخ يتدلَّى فوقنا دون أن
يعرف كيف يضع قدميه على الأرض في زحمة السير التي
ذكَّرتني بأختها بين أنطلياس وبيروت

وها عيناي تسألان كيف يكون المنفى في خطوات شخص
يخرج لتوِّه من قاعة في جامعة نابولي تحدَّث فيها عن
الآخر «ليس في الذات غير الآخر» قال

شكراً نابولي لشمسكِ التي تحب أن تتَّكئ على كتفيَّ
لموجِ بحرك الذي يتمرأى في ذاكرتي ملْتطماً بأطرافي هل
نريد تفسيراً لذلك أنت يا من لا يريد أن يقرأ؟

فرانشيسكا فرانشيسكو جينَّارو هل قلتم اللقاءُ

صداقةٌ ثانية لكن الطرق تطير كيف حدث أن يكون
اللقاء كمثل شجرة فارعة في فضاء الإسمنت وكيف يُترجَم
عطر الوردة أنت أيتها الجميلة التي تسأل عن الترجمة.

للترجمة عمر   ولا عمرَ للشعر

هل ستظل نابولي هواءً طيباً بين بيروت والإسكندرية؟ وما
هذا الوقت   كأنه يحمل فأسه الضارية ويهمُّ أن يضرب
وجه الشرق أو لعل روما لم تعد هي كذلك في مكانها

فرانشيسكا إلى القطار   فرانشيسكو المطار بعد هنيهة

سيارات تقفز الواحدة فوق الأخرى   والأحمر أخضر
لم يقل ذلك منجِّم   غير أن اللانهاية ضوءٌ في قنديل
ينكسر شعاعُه في زاوية المعنى

هل قلت القهوة غير طيبة   إلى اللقاء فرانشيسكو الطرق
تطير   أدخل إلى الباب الذي سأخرج منه إلى الطائرة

أكتشف أنني لم أسجِّل حقيبتي   لم آخذ مكاناً في الطائرة
أعود   هنا أليطاليا هناك لوفتهانزا اهدئي أيتها الطرق
في السبعين لا أزال طفلاً   يا أللّه ماذا تفعل بي   ماذا
أفعل بنفسي   كلما تقدَّمتُ في السن يزداد شعوري بأنني لا
أزال طفلاً دون خبرة   دون معرفة   في السفر خصوصاً
أحتاج دائماً إلى من يأخذ بيدي كلما سافرت   ترتبك

خطواتي   تتحيَّر عيناي   أشعر أن عليَّ أن أسأل دائماً من يرشدني أين وكيف   كأنني مسكون بالخوف من الضياع   من الصعود في طائرة ليست الطائرة التي أسافر فيها   أو في قطار يأخذني إلى حيث لا أقصد   مقصٌ للأظافر   مقصٌ آخر للورق بحجم الإصبع «لن يطيرا معك إلى مونيخ»   قالت الشرطيّة الإيطالية   كيف رأت فيَّ خاطفاً أنا الذي وُلدت مخطوفاً   حسناً خذيهما.

٢

في القاعة التي سأخرج منها إلى الطائرة   جلستُ لا أعرف
ماذا أفعل   كنت شبه منهَكٍ من الطرق التي طارت فيَّ

هكذا أخذتُ أكتب هذا الذي تقرأه الآن أيها القارئ.

الطرق لا تزال تطير   لكنْ حول تمثال «المسيح المحجَّب»
في كابيلا سانسيفيرو
كلا، لن ينكشف الحجاب عن المعنى

هل يمكن أن يخرج الإنسان الواحد من رحمين؟

أوه! ليس في هذه الكأس أية نجمة   والقمر الذي غرق
فيها أمس شفَّهُ الاختناق حتى كاد أن يصبح هلالاً   لماذا
أرى الهاوية أحياناً كأنها بيت أخضر   هل سيطول انتظاري
في ميونيخ   وماذا أفعل في برلين هذا المساء   ومن أين

تجيئني شهوةُ الاختلاط بحروف لا تتشكَّل منها كلماتٌ تُقرَأ بيسر   ولماذا أشعر دائماً أن النظام ليس إلاً خنقاً للكلام

لم تصل الطائرة إلى ميونيخ   وأحس كأنني لم أغادر نابولي كأنني مختلط بها   تهجين أو خلاسية   في أية حال يكون المستقبل خلاسياً أو لن يكون إلاً فتكاً

كأنني لم أغادر نابولي   أنا الذي تركتها مدفوعاً بالطرق الطائرة

تقرأ فيها   في غالاسيا غوتنبرغ   يأخذك العجبُ من أن يكون لك جمهورٌ في الترجمة أعلى منه كماً ونوعاً في لغة الأصل   أهذه بدايات خلاسية   عفواً أيتها اللغة ـ الأم التي تعتقلُها تعاساتُ الأبناء

فرانشيسكو كيف قَدِرتَ أن تؤالف بين الإيقاع العربي وإيقاعك الإيطالي   بين الكلمة التي تنحدر من فم السماء والكلمة التي تصعد من فم الأرض   ألهذا كانت الطرق تطير في نابولي بين أجنحة الشحارير التي يعمل على إنقاذها من أَسر الأقفاص مواطنٌ شاعر   أو تطير في صدور المهاجرين العرب الذين يبصقون الدم هرباً أو خجلاً من ذلك الدم الآخر الذي تبصقه بلدانهم

«أعمل هنا لا أعرف إن كنت سأعود» زَفَرَ طبيب
«أكتب الشعر بلغة هذه البلاد التي آوتني» قال شاب يكاد أن يبدو شيخاً

«لن أعود إلى بلادي. . .» همستْ شابةٌ فيما تكاد أن تبكي

حقاً ما أشقى اليوم أن تكون عربياً!

قل لي مع ذلك أيها الأسمر المنفيُّ المشرَّد بأية لغة يُوَشْوِشُكَ فجرُ نابولي ولا تنسَ أن توقظها كلَّ يوم أن تحضنها كمثل طفلة تنهض لتوِّها من النوم كلَّ يوم

وكانت الطرق تطير حول تمثال «المسيح المحجب» ـ

بمسمارٍ يتحجَّبُ المسيح بخشبة بسقف غيمة

بقبّةِ فلكِ كيميائي بصوت يعبر القارات

بوجهِ عاملٍ لا يعمل بزوايا ترشح دماً بهوامش وأنقاض

أوه! من أين يجيء هذا الكائن   في كلِّ كلمة تخرج من
فمه سيفٌ يضرب عنقاً   ملاكاً حيناً   إنساناً حيناً

وأعرف أن الضوء يتحول أحياناً إلى قناع تلبسه الأظافر

مع من تتقاسمين الخبز أيتها الكأس؟

الجسد عَصيٌّ وللرأس خبزٌ آخر.

أدعوكِ إلى العشاء الأخير أيتها الصلاة!

٣

تسبح الطائرة   أسبح معها فوق جبال من الغيوم   بدأت تهبط   الآن أتخيّل الطرق الطائرة في نابولي تحطُّ هي كذلك   ماذا أسمي طيرانها   أنت عابرةٌ أيتها الغيمة التي تظهر في شكل غزالة   لا بقاءَ في الغيم حتى لكلمة بقاء الهبوط   الأرض والفضاء في هذه الرحلة سجادة واحدة أكاد أن أغفو نمتُ الليل الفائت قليلاً بعد أن قرأت مقالاً يقول نَمْ قليلاً تَعِشْ طويلاً   هبطتْ الطائرة   لم أكتشف وجهَ الإزعاج عند الطفل كما اكتشفته في هذه الرحلة مزيَّة تضاف إلى مزايا الطرق التي تطير على ضفاف المتوسط ـ

من وَضَعَ تلك الصخور على رؤوس أمواجه تجسُّس الذرة؟ دَمُ الحروب؟ وتلك النار التي تقفز من شجرة إلى شجرة في غاباته الكريمة   وهذه القبور التي تفتح أعماقها للأطفال وأمهاتهم   وذلك المرض الكلِّي الحضور الذي يلبس قبعة الإخفاء

خذ جسدي أيها المتوسط البحر   ضَعْهُ إلى جوار قدموس
ودانتي   ردِّدْ معهما   الجمالُ أبجدية الأرض والأبجدية
أنوثة الكون

أظنُّ ـ أنا الكوكبَ الترابي
أنني لم أقدر بعد الآن أن أرى إلاَّ بأشلائي

أظن أنني أتهيأ لكي أدخل في شباك الأساطير.

إنها الشمس تنهض فوق الشآم تترنح في سروالها القديم
اضطربي كما تشائين يا ساق الوردة الجورية،
احتفاءً بالريح!

(نابولي ـ برلين، ١٨ـ٢٤ شباط/فبراير، ٢٠٠٢)

افتحي كتابَ الأُفق،
يا يدَ الشِّعر

تحية إلى آن واد مينكوفسكي

١

في خِصامٍ تُروِّجُ له الفضّة
رأيتُ أقداماً تتقاسَمُ السَّماء،
وكان وَقْعُ خُطواتِها يَتخبّطُ في سلاسِلَ
مُوِّهَت بِذهَب الصَّلاة.

٢

أطفالٌ شيوخٌ
يسيرون كأنّهم يَتأبّطون الأرصفة،
والشَّوارعُ تَسِيلُ بأشباح
تبدو الشَّمس فوقها كأنَّها غيمٌ أحمر.

٣

إِيحاءٌ من جِهة المنارَة ـ
مقهى كراحةِ اليد،
غيرَ أنَّه واسِـعٌ كجبهةِ الأُفق.
مقهى كمثل طائرٍ
يَبْني عُشّه في جَوْفِ الرّيح.

انزلْ بَطِيئاً على الدَّرج أيُّها المُرهَق
وَخُذْ نارجليةً ـ
تَذكّرْ فيها
لُهاثَ الإلَـهة الفينيقيَّة، أوروبّ،
فيما كان يطاردُها وَيخطفُها زوس.
سَتَرى أنَّه لهاثٌ يَجيء من الحنينِ لا مِن التَّعب،
وسوف تشعر أَنَّك والبحرَ في سريرٍ واحد،
فيما يستقبلك صاحب المقهى، صامِتاً، باسِماً،
شِبْهَ تائهٍ،
كأنَّه نَوْرسٌ تُضلِّلهُ الشّواطئ.
نساءٌ إلى جانب الرّجال ـ
يُسافر الرّجال إلى أقاصي أحلامهم،
ويعودون،
كمثل سُفنٍ لا مكان لَها إلاً في مَوْج اللَّه.
وتدخل النِّساءُ في ملكوتِ المخيّلة،
فيما يُقَلِّبْنَ خواصرهنَّ،
وَيُوشْوشْنَ الأعمدة.

٤

احملْ مُناخَ هذا المقهى في رئتيكَ واخرجْ
إلى الشَّوارع ـ

ثانيًا،
انظري! كأنَّ الأشجارَ لا تتذكّر حَتَّى أسماءَها،
وكلُّ شيءٍ يتنكَّر لِلتَّرابِ الذي سَوّاه.
وها هو الهَباءُ يُجدّد أشكالَهُ
لابِساً خِرْقَةَ الأرض.
وانظري -
إلى الجَرس في هذه الكنيسة،
كأنّه جَرّةٌ مِن الدَّمع،
وإلى هذه المِئذنة - كيف يخرج منها الصَّوتُ
كأنَّه جُرحٌ يتنقّل على جسَدِ الفضاء.

٥

كَلاّ، لا تكفي شمعةٌ واحدة
حَتَّى لإضاءَةِ شارعٍ ضيّقٍ،
فمن أين لها، إذنْ، أنْ تُضيءَ العالم؟
تساءلت سلوى -
وكانت تتحدّث عن شطآنٍ ترفضُ
حَتَّى أمواجَها التي أعطتْها المعنى.

٦

آلاتٌ بأصواتٍ بشريّةٍ
تَروي سِيرةَ الوقْتِ.

٧

عُدْ إلى المقهى ـ
النَّهارُ واللَّيلُ نَسْران تَوْأَمانِ
يَلْتهِمانِ جُثَّةَ المكان.
ولماذا أخافُ من خطواتيَ الأُولى في بابِ إدريس؟
ولماذا، كلّما نزلت إلى ساحة البُرْج،
أرَى أَوْجاعي كمثل قطعانٍ نافرة
تعرُج على سلالم تاريخها؟
وأمسِ، التفتَ العابرون إليَّ،
ضاحكين، كأنّهم يَسْخرون،
عندما كنت أنحني فوق هذه السَّاحة،
لِأَلْتَقِط بعضَ أَشْلائِها،
واضِعاً أذنيَّ على ترابها ـ
تُراهُ
لا يَزالُ يُخبِّئُ قلوباً تنبضُ بين ذَرَّاتِه؟
ولماذا أُحِسّ الآنَ
أَنَّ سَاحة البُرج تتحوّل إلى جُذورِ

تَنْغرِسُ في خطواتي؟

آهِ مِن أَرْضٍ
لا تَتّسِـعُ إلاّ لِلآلهةِ وظِلالها!

٨

لم أعد أَعرفُ كيف أمشي
بهذا الحذاء الحديديّ المحشوّ بالمسامير،
الحذاء الذي تُشارَك في صنعهِ المطاعِمُ والمتاجر.
لم أعد أعرفُ كيف أَنسى
غابات القَتلى، تلك التي تختفي وراء الأبواب،
وأين أَخْفَيتِ، إذن، جَراثيمَكِ،
أيّتها الأَيْدي القاتلة؟
أَتوسَّلُ إليكِ، أيّتها الكنيسة،
القائمة في هذا الشّارع الذي يُسمّونه العَصْر،
أَنْ تَدُوري حول الشَّمس،
بالرَّجاءِ نفسه،
أَتوسَّلُ إليكِ أيّتها المِئذَنة.
وأسمع ما تقولانه عَنّا:
معارضون، غاضبون، ثُوّار ـ
صابونٌ أحمرُ

في كيسٍ ضَخْمٍ من الصَّابون الأبيض.
صابونٌ عائلةٌ واحدة
في دُكّانٍ واحد.
بعضه يَصيرُ، في الأعجوبة، سِجناً
بعضُه يَصيرُ سَجّاناً.
وأتوسَّلُ إليكما، أنتما كذلك، عَنّي:
لستُ شاعرَ بيروت، ولا بين شعرائِها،
ولستُ من أنبيائها ـ
في ثيابيَ شَخْصٌ يُفَضِّل، بِاسْمِها،
أن يُمْضيَ وقته في صَداقةِ الأسئلة.
أين تذهب، إذن، بيروتُ
أيّتها الأختُ المقنَّعةُ، يا دمشق؟

٩

تُوقظني النّجومُ في ليل بيروت، لكي تَسْتَنْطِقَني:
هَل أنتَ مع النَّهار أم مع اللَّيل؟
هَلْ، حَقّاً، جاءَتْكَ الرّيح غاضبةً
لكي تسألكَ عن الشَّجرة التي تَنْتَمِي إليها؟
ولماذا تقولُ:
الشكُّ في بيروت ترابٌ أخضَر؟

ولماذا تُصرّ على السَّؤال:
ماذا يفعل نَبْعٌ ليس إلاّ اسْتِسْلاماً -
طبيعةً وطَبْعاً؟
وماذا تقدر مدينةٌ أَنْ تكتبَ،
فيما يكون فعلُها تحتَ الورَقِ،
واسْمُها خارجَ الحبْر؟
ولماذا لا تحتفي هذه الأقلام التي تحتلُّ
المكاتبَ والشَّوارعَ،
إلاّ بالمَوْتَى أو بقارِعي الطّبول؟
ولماذا صَمَتَّ،
عندما جاءت شَجرَةُ الورد،
وَوضعَتْ يدَها عليكَ،
وسألتكَ:
مِن أين جاءكَ هذا العِطر؟

١٠
أَظُنُّني مَوْجةً
تُسافِرُ، منذ أيّام جلجامش،
نحو بيروتَ والعرب،
لكنّها لم تَصِل بعد.

١١

أيُّها الوطنيّ،
لا وطنَ لكَ،
خيرٌ أن تَستَوْطِنَ لُغتكَ، فيما تُهيّئ لأحلامكَ
سَقْفاً يحضنها
عندما تُجَنُّ الغيومُ
وتَأخذُ بِازْدِرَادِ الفضاء.
وَانْسَ، قَبل كلّ شيءٍ،
أولئكَ الذين يرسمون جِسْمَ الشّعر
بِحِبرِ الثّآليل.

١٢

عَجباً!
كيف يحدثُ أَنَّ صنوبرَ الكنيسة
لا يَقرأُه هواء المئذنة!
كيف يحدث أن تجهلَ الكنيسةُ
أنّ الهواءَ يهبّ، لا لشيءٍ،
إلاَّ لكي يكونَ عزَاءً لِلشَّجر!

١٣

عُدْ إلى مَقْهاكَ، أيُّها المُرْهَق!

أَجلسُ تحت سَقْفٍ من الظلّ المليء بالثُّقوب،
وأَتَلعثَمُ في حديثي مع النّارجيلة ـ
هذه الأُنْثى التي لا تتكلّم إلاّ بِجسدها كلّه.
وكيف أقول لنبع صِنّين
أن يُعطِيَ لكلماتيَ صوتَ انْبجاساتهِ،
وفي داخلي صوتٌ يُتَمْتِم:
أليست عودتُكَ رحيلاً آخر؟
وكيف أَسْتَجيبُ لرغبة اللّيلِ
في أن يضعَ رأسه على كتفيّ،
ويَبْحثَ معيَ عن أَنْفِ الوردة
التي تشمّ رائحةَ بيروت في أوّل الفَجْر؟
أجلسُ كمثل شَيْخٍ
وُلِدَ منذ أكثرَ من ثلاثة آلاف سنة،
على هذا الشَّاطئ،
وليس للبحر الذي يتلألأ أمامَهُ أيّ حظٍّ
في أن يَتحوّل زوس
إلى ثَوْرٍ أبيضَ يمخرُ في زُرْقتهِ
خاطِفاً أوروبَّ!
الفضاءُ مُبْتذَلٌ وبَالٍ،
لا تكادُ شمسُه أن تَجدَ في ثَدْييها

حليباً لِتُرضعَ طفلتَها الجائعةَ ـ الأرض.
والقصائد تموتُ كمثل ملائكةٍ بلا أجنحة،
وها أنا أكادُ أن أَرْتجفَ من البَرْدِ،
ولا أَجِدُ ما أتغطّى بهِ،
إلاَّ عبَاءةَ الكلام.

افْتَحي كتابَ الأُفقِ، يا يدَ الشعر.

(بيروت ـ باريس، آذار/ مارس، ٢٠٠١)

أتخيَّل شاعراً

تحية إلى جاك بيرك

أَتخيَّلُ شاعراً
في بيروتَ ـ أُخْتِ أَنطاكِيةَ، صديقةِ أثينا،
شاعراً يقفُ معَ صديقهِ جاك بيرك، على بابِ البحرِ
مائلاً على عصاه
يتخيَّلُ أنّ صوتَهُ مِزمارٌ
أنّ المِزْمارَ ينكسرُ في حنجرَتِه
أنّ حنجرَتَهُ نارٌ اسمُها اللَّه.

أَتخَيَّلُ شاعراً
يُمطِرُ التاريخُ في أحشائِهِ
يمطرُ في كَلِماتِهِ وبينَ قدَمَيه،
يُمطِرُ دماً يرْفعه بعضُهُم كأَنَّهُ رايةُ السماء.

يا ربّةَ الشكِّ، أنتِ التي وُلدتِ في حضنِ بحرِنا الأمّ،
لماذا لا تقولينَ هذا الشاعرَ وصديقَه،
تقولينَ ما لا ترَيْن

ما يقلِبُ الزّمنَ على قفاه
ما يُمسِكُ بالريحِ واقفةً على أصابعِ قدَمَيْها
ما يسكُبُ رمادَ الصمتِ فوقَ لَهَبِ الكلامِ
الذي يرْتَجِلُهُ نثرُ العالم؟
قولي كذلك الأهدابَ الصّدِئَةَ
الأيدِيَ المَبتورةَ
الأيامَ المُتآكِلةَ،
وهلِ القِنديلُ عُنُقٌ أم رأسٌ
وكيف نُمَيِّزُ اليومَ بين الحَشَرَةِ والوردة؟
وقولي: هل يُمكِنُ ابتكارُ طريقةٍ
لاسْتِعمارِ الغيم؟
وقولي:
ما أحوَجَ هذا البحرَ المتوسِّطَ
إلى أن يجيءَ ثانيةً من طفولةِ الأبجديّة.

كم هي جريئةٌ تلك الزيزانُ التي تعمُرُ حصادَكِ أيتُها الأبجديّة!
وما أشرسَ الملائكةَ الذين يفترِشونَ أسِرَّةَ نسيانِكِ!

رينه شار،
أين هي الصاعقةُ، إذَنْ؟

ولماذا لا يزالُ الشِّعرُ حليفاً للمَوْج؟
ولماذا لم تُبقِ السماءُ من تاريخِنا
إلاَّ تماثيلَ بُتِرَتْ أعضاؤُها الجنسيّة؟

الشاعرُ المائلُ على عصاه،
واقفاً على بابِ البحرِ، مع صديقِه
جاك بيرك
يوشوشُ صديقَه وربّما الموجَ:
ـ «إنْ كانتْ هناكَ سماءٌ فهي الهِجرة».
ويردّ صديقُه، موشوشاً هو كذلك:
ـ «كلاّ
ليستِ المُعجِزَةُ من فوق
إنّها الترابُ نائماً في سراويلِ العُشب».

الساعةُ الآن؟ لا أعرِف.
غيرَ أنَّ العقاربَ تدور. تَطِنُّ حولَها ذُبابتان، ثلاثٌ.
اكتبْ قصيدةً، أيُّها الشاعرُ، وصِفِ المشهدَ ـ
مُضيفاً إليه الجدارَ الذي دُلِّيَتْ عليه والسّتارة
نصفَ الممَزَّقة تحتَ المِشكاةِ والنافذةَ السوداءَ
ولا تنسَ أن تستشهِدَ بالحداثةِ لتُعَدَّ بين

السبّاقين وقبلَ ذلك لا تنسَ أن تُضيفَ إلى المَشهد
الحذاءَ العتيقَ الواقفَ وحيداً   تحت الساعةِ كأنَّه
ينتظرُ عودةَ صاحبِه وإيّاكَ والقضايا الكبرى   الشعرُ
لكي يلتقِطَ ـ لا الأشياءَ، بل فُتاتَها.
ولتكنْ كلماتُك في مستوى الوثيقة.

أوه!
نامَ القمرُ حزيناً
على كرسيِّهِ الذي غطّاهُ الغيم.
وكان الشاعرُ المائلُ على عصاه، برِفقةِ
صديقِه جاك بيرك،
يَعُدُّ الفراشاتِ التي غرِقَتْ في لُجّةِ اللهَبِ
تلك الليلة،
لهَبِ الشموعِ التي أشعلَها
أطفالٌ على البحر
يسْمَرونَ معَ الزَّبَد،
ويصطادون الموج.

وكان مساءُ بيروتَ
يتوجَّعُ كمثلِ شحّاذٍ يَتَسوَّلُ الفضاء،

جاثياً على رُكبتيه،
واضعاً خدَّه على خدِّ يوليس.
ترانا، نحن الذين لا نزال أحياءَ على ضفافِ المتوسّط،
لم نعُد إلاّ رعاةً للنجوم؟

وردةٌ تحمِلُ الليلَ كلَّهُ بين أكمامِها
تتّكِئُ على صدرِ بيروتَ
فيما تُعطي خصرَها لزندِ الهواء،
وفيما تحضِنُ الحياةُ بيوضَها
واضعةً قدمَيْها على درَجِ المستقبَل ـ

أَهذا هو العالَمُ حقّاً؟
هل آسَفُ؟ هل آمَلُ؟
أَفَضّلُ أن أغنّي.

(دارتموث كوليج ـ هانوڤر ـ الولايات المتحدة، أيار/مايو، ٢٠٠١)

برلين
ذلك الصَّباح

١

أخذني الفجرُ من يديَّ وأسلمني إلى طريقٍ أسلكها للمرّة الأولى،
قلت للطريق الشّارع أن يفتحَ لي معجمَ ألفاظه الحديثة هو الذي لا ينتهي من كتابته ـ
ألفاظٌ من المعدن في صورٍ وأشكالٍ تعجّ بها جميع الأنحاء،
ألفاظٌ من لاشيء،
غيرَ أنني لم آخذْ منها إلاًّ تلك التي قبلت الثوب الذي خاطه حِبْرٌ يصبغ الآن هذه الصفحة.

كانت الشمس قد أيقظت النّافذة، وأيقظت غرفتي، وكان النّوم قد خرَج حافياً إلى الغابة. نظرت إليه يُحيّي في طريقه أغصاناً شبه عارية. حَيّا أعشاباً بدت كأنّها كتابات غامضة لا تفهمها حتّى الشّمس. حَيّا مقاعدَ من الخشب، وكراسي من الحجر. حَيّا ثقوباً لم أعرف إن كانت الطيور تسكنها أو السّناجيب. وبدت رؤوس الشَّجر كمثل أقلامٍ ملوّنةٍ ترسم الفضاء.

لم يسألني أيّ عابرٍ: مَن أنتَ؟ ومن أين؟ عندما كدت أسقط مع شيخ آخر تحت دواليب سيّارة طاشَتْ فجأةً.

أَرجَعَ هذا الحادث إلى عينيَّ ضوءاً كان يُفْلِتُ منهما جامحاً ويتشرّدُ في جميع الأنحاء. مُذّاكَ، أخذت أقلّبُ نظري هادئاً، وأخذتُ أُلاحظ ما فاجأني حَقّاً:

قبوراً كثيرة تعوم في فضاء
هذا المدينة الباذخة.

عن أيّ شيء يتحدّث هذا الكلب المضطرب إلى صديقته، وبأيّة لغة؟

هل عليَّ إذن أن أفهمَ عتبةَ الغامض في هذه المدينة لكي أصلَ إلى بيت الوضوح؟

عَبرتْ آلةٌ تركض ـ لها قامَةُ لاعبٍ رياضيّ مُراهق،
كأنَّه مركبةٌ فضائية تطيرُ على وجه التُّراب، ـ
لا تعكّري، أيّتها الآلة، صفاءَ العشب.

أسيرُ،

إلى جانبي تسير خواطري كمثل صفٍّ طويل من تلميذات

يتهرّبن من المدرسة. أكمامُ وَرْدٍ تذبل على الأرصفة. تمرّ أشباههنَّ النَّساء دون أن يتأوَّهْنَ أو يلتفتن. ندى الصباح كمثل شاي أخضر يفيض من فناجينَ لها أَشكال البراعم، ولها غالباً أشكال الورق الذي ينسدل على أعناق النّباتات.

ضوءٌ شاحبٌ يطوف على الأرصفة كأنه حارسٌ يستيقظُ باكراً ـ يفرك عينيه، ولم يتناول فطوره بعد.

أظنّ أنّ في كلّ زهرةٍ آلةً عجيبةً صنعتها الطَّبيعة لا تنطقُ إلاّ شعراً.

لكن، ماذا يُجدي الطبيعةَ أن تُؤالِفَ بين أزهارها وأعشابها ونباتاتِها، أو تشعل الفتنةَ فيما بينها، كما يفعل الشاعر بالكلمات؟ولماذا تفعل ذلك، وماذا تأمل؟

أحسب لو أنني أسأل الشاعر هذين السَّؤالين عن كلماتِهِ،

لكان يردّ غاضباً:

ولماذا لا تسأل الطّبيعة؟

تخرجُ من هذا الكتاب الذي تكتبه الطَّبيعة خطواتٌ ومناجِلُ وفؤوس، وأجهل أين تمضي. والعجَبُ أنّها لا تترك أثراً يُقتفَى. كنت أرى في كل زهرةٍ كلمتين لا تفترقان: كلمة أحمر، وكلمة حزن. ولست مُوقناً أنّ للدم الذي يراق في هذه القارّة شأناً في هذه الظَّاهرة!

غيرَ أنّ ضوءَ الشّمس ينزّه التاريخ على الأرصفة وفي الحقولِ وأمام البيوت، حاملاً على صدره طفله الزّمن، فيما تذهب الأمّهات إلى زيارة أبنائهنّ في المقابر، لكي يزيّنَّ قبورهم بأكاليل الذكرى.

هل يكفي الشّعرَ أن يحفرَ رعده في جوف الوقت؟ هل يكفيه أن يُطْلقَ منفاه في المكانِ كمثل سِرْبِ من الفراشات؟
لكن بأيّة لغةِ أستفسر أشجارَ القَيْقَب؟ وعلى أيّة جهةٍ من كتفي هذه السُّمانى أُلقي جناحيَ المُرهَق؟

اكشفْ أيُّها الشعر الغطاءَ عن بَصَرِ التراب، واحفرْ عميقاً عميقاً في قلب المادّة.
هل تأمل في أن ترى إلاّ أشلاء المعنى تتطاير حمراءَ كمثل أشلاء ذلك العاشق
الإله البائسِ أورفيوس؟
أعترف: سِرّي مُطْبقٌ عليَّ، وسِرِّي أنني أحبّ.
أعترف: إنها طفولتي، لا عَدْنٌ ولا أيّ نعيم!

وألتَحفكِ وأتماهى بكِ، يا شقائقَ النُّعمان،
يا اسميَ الآخر.
أكادُ أن أوقنَ الآن: اللَّيلُ جَمْعٌ
والمفرد هو الضّوء.

كلاّ، ليس للأبدية هنا أو ما يُسمّى الخلودَ مقامٌ يرقى إلى نَشْوةِ النّفّري، أو إلى حيرة المعرّي!

قَصَّابين ـ الكتاب

١

بين قَصَّابين والكتاب، عشتُ وأعيش، ـ

كثيراً ما أصغي إليهما، فيما وراءَ رمادِ المعنى، الذي يغطّي جمرة الحاضر، يقولان لي:

كلاّ، لا تُعاش الحياةُ
إلاَّ في بيت الحريّة،
ولا تُكْتَبُ
إلاَّ بِضَراوةِ اللَّغة.

٢

كان لخطواتِيَ الأولى في ضوء الكتاب وقصّابين، أن تمتزجَ بالأشياء والأشكال في المسرح الذي يُحيط بي، ـ

لكلّ نبتةٍ
لكل شجرةٍ
لكلّ غيمةٍ،
خزانةٌ ملأى بثيابٍ تَنْتقِيها قَصّابين،

تلك الخَيّاطة، الوديَعةُ الوجه، البارعة اليدين، الجالسةُ في حضن الطَّبيعة ـ خَدّاً في الظلّ، وخَدّاً في الضَّوء.

وكانت حركة الأشياء، ولا تزالْ، تكتب العالَمَ

بحريّة الهواء،

وبِحبْرٍ كأنَّه دَمُ الوقت.

٣

دَمٌ، أرضُنا اليوم.

وأولئك الذي يظنّون أنَّ السَّماءَ وَعْدٌ لهم، وأَنَّها في طريقها إليهم، لم يعرفوا أن يرفعوا في طريقها إلاَّ شِباكاً لِلصّيد ـ

صيد الفضاء حيناً،

وصيد البشر، حيناً آخر.

٤

لا تُقاتِلْ إلاَّ نفسَك.

في الأرض مُتَّسعٌ للجميع،

والسُّلطة أَوّل الحيوان:

صَوْتٌ

كأنّه يجيء مِن كتابٍ

تُقلّبه يَدَا قَصابين.

٥

دَمٌ، أرضُنا اليوم.

جَفّ الضّوءُ الذي كان يكتب حقولَ قَصّابين،

وَلم يكن النَّفَلُ والأقحوان، الصَّعتر والهندباء قصائدَه الوحيدة.

تَرفَّقي، أيّتها الرّيحُ، بتلك الدَّفاتر المتناثرة بين يدي الجفاف،

تَرفَّقِي بالقَصب المائل العُنقِ، المنكسر القامة،

بجذوع الصّفصاف الباكي الذي هجرته حتى دموعه.

أرضٌ تتشقّق، وتتطايَرُ غباراً.

٦

. . . في صيف قَصّابين، يتحوّل اللّيلُ إلى ساحر. لا يظهر في الرّيف، طولَ هذا الفصل، إلاّ حاسِرَ الرّأس. يمشي مع الشجر والعشب، كأنه يمشي تحيّةً للحريّة. يُمضي وقته كلَّه، يعدُّ النجومَ، ويلتقط النّيازك.

٧

دَمٌ، أرضنا اليوم.

بعينيَّ الاثنتَيْنِ، أكاد أن أرَى كيف تضطربُ البحيرة التي نُسميّها المستقبل،

بشعوبٍ تُفْتَتَنُ بتاريخٍ يُكْتَبُ على جُدرانِ قِدْرٍ كونيّة:
النَّهارُ فيها نَيِّئٌ
واللَّيلُ نصفُ مطبوخ.

أنَا التُّرابُ، أسألُكَ أيُّها الكائِن:
لماذا تُصِرّ على أنَّ السَّماءَ هي التي تبتكركَ،
فيما الأرض هي التي تُحييك؟
أَنَا التُّرابُ، لن أُصْغِيَ إليكَ
لا أستطيعُ أن أهبطَ إلى سمائِكَ.

العلوُّ سيّدٌ على أعضائي.

٨
دَمٌ أرضُنا،
وها هو عصرُنا، ـ
أبوابٌ ونوافذُ
تَتسارَقُ النَّظَر، وتتعانَقُ في الخفاء.
أَثداءُ الشَّوارع تدرُّ غزيرةً،
غيرَ أنّ الحليبَ دَمٌ،
وملائكة التّقوى تتعارَكُ
فوق رؤوسِ المارَّةِ وبين أقدامهم:

مَلاَكٌ يَسْتَبسل لِقتل طفلةٍ في سريرِها،
آخَرُ يسيل دمه على حصيرِ الجنّة.
وفي فُرْنِ على الزّاوية،
تفوح رائحةُ تاريخٍ لا يَخبزُ
غيرَ الجُثَثِ وغيرَ الآلهة.

٩

إنّه عصرُنا ـ
فَتّشتُ عن ذاكرتي بين قَصّابين والكتاب،
كانت تنام في جُرْنٍ من اليأس،
وكان الجرنُ ينامُ في أعلى مَبْنى.
المبنى أسوارٌ من الحديد والتّعاليم، وأبوابٌ يَفْتحها اللُّهاثُ ويُغلقُها. مِن أخمص القدم إلى أعلى اليأفوخ، يمتلئ جسدهُ ببثُورِ الظّلام. إنّه عصرنا. وثمّة أجنحةٌ تنقرض، ويَنابيعُ لا تقدر أن تبوح بمائِها.

١٠

أوه، لِلشاعر العاشق المشرّد!
سِيميائيٌ صديق الأفلاك. ينصب إنْبيقَهُ على قارعة المدنِ،
ويعالج الهواء!

افْهَمْهُ، أيُّها العصر! لا يستطيعُ أن يكتبَكَ، لا يستطيع أن يكتبَ نفسه إلاّ بأبجديّةِ الحريّة.

(برلين، نيسان/ أبريل، ٢٠٠٢)

تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى

ـ تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ زمَنٌ يتآكلُ ويَحْدودب. وما أشقى الإنسان الذي لا يرى أمامه، كلّما تقدّم، إلاَّ القديم.

أظنّ أنّ السَّماءَ آخذةٌ في الخروج من هيكلها المغلق.

أظنُّ أنَّ القيدَ الصّغيرَ المسمّى عقلاً، يكاد أن ينكسر.

ـ تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ عينٌ بَلّوريّةٌ تقرأ لمن يريد أن يُصغي. قدَمٌ معدنيّةٌ تمشي بكَ، تمشي عنكَ. تأمركَ الحاسبةُ الإلكترونيّة.

وكلّ رَقْمٍ حاسّة.

روبو روبوكا

يتزرَّر جسد العالم. وتحدس الأَزْرارُ بما يأتي،

في أَرْضٍ تسيّرها نارُ اللَّه.

ـ تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ افركوا وجهَ اللَّيل بالورد. ادعكوا جسدَ النَّهار بالقرنفل. ماء المدينة يهربُ إلى الغيم، والجُرذان تبيعُ الهواء.

يتبعُ التَّابعُ ضفدعةً ويقول إنه يُطارد أميرةً. الأطفال يتوّكأونَ على أيّامٍ ترتسمُ عكاكيزَ من الرّماد. وكلّ طريقٍ تخطبُ عالياً:

تنوّروا بسراويلي،
لهَبي ساطِعٌ،
وسوف أهجم على النُّجوم.

ـ تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ يجلس المتبوعُ فوق أريكةٍ من توابل العَصر، احتفاءً بدجَاجٍ يبيضُ العروش. الأرضُ حوله ضروعٌ هي نفسُها تُحشَى بالجثث في زَريبةٍ تغصّ بالماشية. لا شيء، لا شيء. يتهيأون ليسلخوا هذه الماشية.

دمامِلُ ذَرَّةٍ. بثور كيمياء. نَكّسْ رأسكَ أيُّها القطيع الواهن. المتبوع يعبرُ. يعبرُ سُلطانُهُ نَاقةً تُسرَجُ بكتفيْ نجمةٍ،

حشوداً تُضَخُّ أمعاؤهم. آلهةٌ مُتراصَّةٌ حول أعناق الفانين.
رؤوسٌ تئنّ تحت أثقال النّبوءات.
خريفٌ، والأرض لا تَتّسعُ لِبسَاط أوراقه.

ـ تنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ المكانُ بخارُ نفاياتٍ. أشباحٌ تطلعُ من تجاعيد التّراب. صحراء غازٌ للغزو. تمتزجُ الأدمغة بِالنُّشَارة. تختلط الأجساد بالورَقِ المُقوَّى ـ في أوبئةٍ تَتفكَّكُ تتلاحم. وانظروا، وأَصْغُوا. أفي وجوهكم تَسبح هذه السَّلاحف؟ أفي رؤوسكم تدوّم تلك السّراطين؟

يتنزّه الوقتُ تحت مجرّات أَسْلحةٍ تَفجُّ التكوين. والكونُ يَترهَّل.

ـ تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ تَسَمَّرْ أيُّها الشَّاعر الأخطبوط لِنعرفَ كيف تتحرّك. يلزمكَ مَسحوقُ المعنى، مصبوغاً بِنصاعة الفَجر. ينبغي أن يَدَّهِنَ كلامُكَ، لا بالخيالِ بل بِقَشْدةِ العَقْل. ولتكن مثلّجةً. العَصْرُ قيظٌ، ولكَ أن تغطسَ في بحيرة الذّاكرة. وقل

لعاطفتكَ أن تجثمَ فوق الأفكار كمثل يمامَةٍ تحضن بيضَها.

هَذَا وإِلاَّ

ـ كيف أمنحُ كلامي لمتبوعِ الزّمن وتابعيه؟ كيف
أتقدّم حيث ترفض الطَّريق نفسُها أن تتقدّم؟
كيف أقول لريشتي أقْنِعي الهواءَ لكي
يَحتضن خطواتِ الحجر؟ أو كوني طَبْلاً
وارقصي أو كوني حارسةً للجراء؟
كلاّ، كلاّ، لا أريد شيئاً، ولستُ من
هذا العالم.

ـ تَنبَّأْ، أيُّها الأعمى.

ـ أريد أن أظلَّ منفيّاً إلى الحريّة. نفسي مُصَرّفةٌ، لا تقنعُ إلاَّ بالتنقّل من حالٍ إلى حال. غداً تشتعل نارُ عصيانٍ، ولن أحملَ الماء. أفتح أذنيَّ وعينيّ على جَمالٍ يميل نحو ضوءٍ يحارب ظلاماً ليس إلا امتداداً له ضوءٍ يستأصِلُ نفسَه مما يقيّدها وأبحث عن نقيضٍ ليس إلاَّ قناعيَ الآخر في تاريخٍ تطمسه كلماتٌ في مسافاتٍ أغطّيها برماد ما كتبته وأكتبه وأَسْتَنْبِتُ الجمالَ الذي يَميل نحو ضوءٍ لا يستأصِلُ غيره بل

نفسه في اتّجاه مجهولٍ يَستَوْعِبُ السُّؤالَ لا يُجيبُ إلاَّ لكي أطرحَ سؤالاً آخرَ يُتاخم الصّمت   جناحاً في الحجر يرفرف   شيئاً يمتزج بغير عناصره في ذاكرةٍ ليست إلاَّ جرحاً

يجمعني بما مضى هذه الفاصلة: المستقبل.

صورٌ وصفيّة لحالاتٍ
أَمْلَتْها نبوءاتُ الأعمى

حالة الشاعر ـ ١

لا تعرفه إلاَّ بغموضٍ. ما أوضحَهُ:
شَمس المعنى
يحدث أن يحجبَها
ظِلُّ جدارٍ.

حالة الشاعر ـ ٢

بعد الموتِ، يقول لذاكَ الحاكمِ: زِلْتَ، وزالَ المُلْكُ، وكلُّ جيوشكَ زالَتْ.

وبقيتُ أنا
حَتَّى لكأنّي أُولَدُ كلّ صباحٍ.
ويقول لذاك الحاكم: انْهضْ واشْهَدْ
ستَرى أَنَّك تَقْفُو أثَري، تقفو خطواتي
ستَرى شِعري
ملكاً للضَّوءِ، وأنتَ شُعاعٌ
مِنّي، يتَوهَّجُ في كلماتي.

حالة المتمرِّد

أتريدونني أن أكونْ أميراً عليكم، وأنتم عبيدٌ؟
أنْ يُقال: أنا صوتكم،
وأنا مثلكم، لستُ حرّاً؟
افهموني إذاً،
إِنْ بدأتُ بِقتل العدوّ الذي فِيَّ من أَوَّلِ، وفيكم.
العدوّ الذي يتوهّم أَنَّيَ لا عِلْمَ عندي بِأوهامهِ.
افهموني، إذاً،
إِنْ وضعتُ حديدي عليَّ، عليكم، على أرضنا.

حالة المُتَّهَم

ـ عرّضْتَ بالنّبيّ
في بعض أقوالِكَ،
ـ لم أُعَرّضْ.
ـ نفيتَ ما يُقال عن خصائص الجِماعِ، واعتنقتَ
في الظَّلامِ وحياً آخَراً
يَجيءُ مِن شَيطانكَ الخفيّ.
ـ . . . .

حالة البريء

لو تركتُكِ يا نَفْسُ تَسْتسلمينَ، لَروَّضْتِ ما كانَ صَعْباً،
وَلَأُعطيتِ مُلْكاً.

وَصحيحٌ ضَعُفْتُ، ولكنّني كنتُ أَفْحصُ أهواءَ عَصْريَ،
أَغْزو دُخَيْلاءَهُ،
وأجادِلُ شكّيَ فيهِ، ويأسيَ مِنهُ،
وأُراهِنُ ما لا أُطِيقُ،
وما لا يُطيق الرِّهانْ.

وصَحيحٌ تَأَوَّلْتُ، أَسْرفْتُ في الظنِّ، خيراً وشَرّاً، ولكن
كيف نعرف سِرّ المكانِ،
إذا لم نُلوِّثْ بطينِ المكانْ؟

حالة المفكّر

دائماً كنتُ أُخْطِئُ، ما زلتُ أُخْطِئُ، آمَلُ أن يتواصَلَ،
مِن أَجْل ذاك اليقينِ المنوَّرِ، هذا الخطَأْ.
لا أريدُ الكمالَ، وليس الحنينُ الذي يتفجّر في شَهقاتي
وفي زَفَراتي،
حَنِيناً إلى مُتَّكَأْ.

حالة الصعلوك

ليس لي غيرُ هذا الزّمانِ الذي يُحْتَضَرْ
ليس لي غيرُ ذاك الكتاب الذي يُحْتَضَرْ
ليس لي غيرُ هذي الطّريقِ التي تُحتَضَرْ
ليس لي غيرُ تلك البلادِ التي تُحتضَرْ
ليس لي غيرُ هذا الفراغ الذي يتقدّمُ،
يعلو، ويمتدّ في خطواتِ البشَرْ.

حالة الكاتب

يكتب الطّفلُ: «صوت المدينة يَعلُو
يردّد آهاتِها وأناشيدَها».
يكتب الشَّيخُ: «آهِ، الينابيعُ حمراءُ في أرضِنا».
يكتب الفقراءُ: «الفراغُ بِذارٌ بين أقدامِنا».
يكتب الشّعراءُ: «الحبالُ تجرّ العصافيرَ
مخنوقةً
حول أعشاشِها».

ما الذي تكتب الشّمسُ، ماذا تقولُ لأبنائِها؟

حالة السّائل

مَا الّذي يَتحرّكُ فيهِ؟ جُزَيْئاتُ حُبٍّ وخَوْفٍ؟
قوافِلُ حلْمٍ؟
خيولٌ؟ براكينُ من أَرَقٍ غيهبيٍّ؟

يَتَقَصَّى،
يُجيِّشُ هذا الهديرَ، ويُزْجيهِ صَفّاً فَصفّاً
في عراكٍ مع الكَوْنِ. حِبْرٌ
وهذي يَدٌ تتدلَّى،
ومَن يكتبُ،
أيّهذا الهديرُ الصَّديقُ العدوُّ الأبُ؟

حالة الخَلاَّق

رفعتْه رِياحُ الجُموحِ إلى فَلَكِ المَعْصِيَهْ،
فاغفروا ما تقدَّم، يا أيُّها الغافرونَ، وما قد تَأَخَّر
مِن ذنبهِ ـ
لم يَجِدْ غيرَ حِبْر الضّلالِ لكي يكتبَ الأُغنيهْ.

حالة المنفيّ

فَرَّ مِن قَوْمِه،
عندما قالتِ الظُّلماتُ: أنا أرضُه وأنا سِرُّها.
كيف، ماذا يُسمّي بلاداً
لم تعد تنتمي إليهِ، وليس له غيرُها؟

حالة الضالّ

كم تنوَّر ليلَ الذِّئابْ،
هرباً مِن سماءٍ، هرباً من بلادٍ،
هرباً من كتابْ.

حالة الفيلسوف

«كلَّ يومٍ أفتّشُ عن هاربٍ تحت جلدي»، يقولُ
يكرِّر: «جسمي حصارٌ، وأرضي حصارٌ».
ويؤكِّدُ: «لا، لستُ أشكو». ويسأَلُ:
ما ذلك النُّواحُ؟ المدِينَةُ، هذا المسَاءُ
ورَقٌ طائِرٌ.
هل يقومُ التّرابُ على قَدمْيهِ؟
... ...
عاصِفٌ مِن هَباءْ.

حالة الأُمَّة

أُمَّةٌ ـ غابَةٌ
ذبَحتْ طَيْرَها
لترى في دَم المذبَحهْ
كيف يَجْتَرُّ جسِمُ الطَّبيعةِ ذاكرةَ الأجنحَهْ.

حالة الحاكم

عقلُهُ مُخْطِئٌ، ولكنّ كرسيَّهُ مُصيبٌ:
البلادُ انحناءٌ لَهُ،
ولدولابهِ.

حالة الصديق

أيُّهذا الصَّديق الذي كنتُ سمّيتُه
بِاسْمِ أيّامهِ وأهوالِها،
أنتَ في شَهْقَةٍ، وأنا زفرةٌ.
نتهجّى الخرابَ الذي يتفجَّرُ فينا ونقرأ آياتهِ،
كي تكونَ ضياءً
لمراراتِنا.

حالة اليقين

لا أشكُّ: الخيولُ التي أسْرَجَتْها الخرافاتُ،
تقتلُ فرسانَها.

للشاعر

(آثَرْنا، اختصاراً، أن نكتفي بالإشارة إلى الطبعتين الأولى، والأخيرة).

١) شعر

قصائد أولى، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٥٧؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أوراق في الريح، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٥٨؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أغاني مهيار الدمشقي، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦١؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل،
ط١ المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٥؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

المسرح والمرايا، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

وقت بين الرماد والورد، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠.

هذا هو اسمي، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠.

مفرد بصيغة الجمع، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٧؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

كتاب القصائد الخمس، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت ١٩٨٥.

شهوة تتقدم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧.

احتفاءً بالأشياء الغامضة الواضحة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٤.

الكتاب I، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٥.

الكتاب II، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨.

الكتاب III، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢.

فهرس لأعمال الريح، دار النهار، بيروت.

أَوَّلُ الجَسدِ آخِرُ البَحْر، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣

٢) الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛
ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٥؛
ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥؛
الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.

الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.

٣) دراسات

مقدمة للشعر العربي، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛
ط٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦.

زمن الشعر، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢؛
ط٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.

الثابت والمتحوّل، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب،
الطبعة الثامنة (طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة، في أربعة أجزاء):
١ ـ الأصول،
٢ ـ تأصيل الأصول،
٣ ـ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني،
٤ ـ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري.
دار الساقي، ٢٠٠١.

فاتحة لنهايات القرن، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠؛
الطبعة الثانية، دار النّهار، بيروت.
سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.
الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢.
النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
ها أنت أيها الوقت، (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.

٤) مختارات

مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٢.
ديوان الشعر العربي،
الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.
الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.
الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٨.
ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء)، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.
مختارات من شعر السياب، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧.
مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من محمد عبده (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من محمد رشيد رضا (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

(الكتب الستة الأخيرة، وُضعت بالتعاون مع خالدة سعيد).

٥) ترجمات

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.

السيد بوبل، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.

مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٣.

البنفسج، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٣.

السفر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.

سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.

مسرح جورج شحادة، طبعة جديدة، بالعربية والفرنسيّة، دار النهار، بيروت.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان جون بيرس،

منارات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦؛
طبعة جديدة، دار المدى، دمشق.

منفى، وقصائد أخرى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨.

مسرح راسين

فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٩.

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦.

كتاب التحولات، أوفيد، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢.

ISBN 185516475-2

DAR
AL SAQI
دار الساقي